

الخصوصية و الكونية

مدخل إلى التفكير في المسألة

مبررات التفكير في المسألة

1

- يبدو أن ما يسم الواقع الإنساني من تعدد وتنوع واختلاف، وما يميّز الإنساني من نزوع نحو الكوني من ناحية وما يمثل القاسم المشترك في الفضاء الإنساني من ناحية أخرى بما هو مؤشّر على الوحدة، أو الوجود النوعي للإنسان، ما يشرع النظر في مثل هذه المسألة...
- لعلّ ما اقترن به واقع الاختلاف من صراع أو صدام وعنف مورس تحت شعارات مختلفة، فحرب الآلهة أو الحرب باسم الدفاع عن حقوق الإنسان أو من أجل نشر قيم الحق أو الدفاع عن الكرامة الإنسانية أو باسم مقاومة الإرهاب، هو الذي يدفعنا لمراجعة واقع الاختلاف هذا...
- إن ظهور أقلّيات تدافع عن حقّها في الاختلاف والاعتراف بها بما هي وجود أو كيان مستقلّ، له هويته المميزة ما يفيد أننا نعيش اختراق ثقافات لخصوصية ثقافات أخرى باسم الكوني...
- إن انغلاق ثقافات معينة على نفسها دفاعاً عن الخصوصية ورفضاً للكونية، وما يثيره هذا الانغلاق والرفض من جدل يعكس عند البعض أزمة هوية ويعكس عند البعض الآخر اشتباهاً في الكونيّ.

الأبعاد الإشكالية للمسألة

2

- تحيل الخصوصية على معنى الهوية، أي على ما هو جوهرّي وثابت وأصيل ومميز لمجتمع ما أو لأمة ما أو للنحن الثقافي، ولكن هل ينبغي النظر إلى الهوية من حجة اعتبارها مقولة منطقية تحيل على الثابت أو منطق الهوية أم من حجة اعتبارها ما يتحقق تاريخياً وما تقتضيه التاريخية من حركة وتحوّل وكسب؟
- سؤال الثابت والمتحوّل يجعلنا على سؤال الهوية من جديد من حجة الحق ومن حجة الواقع، فهل الهوية كيان بسيط أم كيان مركّب؟ بمعنى هل تردّ جذور الهوية إلى ثقافة واحدة منغلقة على ذاتها متأصلة في عمقها أم أن جذورها متعددة وأصالتها تستمدّ من أصالة انفتاحها وقدرتها على التأثر بالتاريخ والتأثير فيه من ناحية ومن قدرتها على الإبداع والتجديد من ناحية أخرى؟
- يتولّد عن التسليم بأن الهوية بسيطة أو جوهر بسيط الدفاع عن الخصوصية، وباسم الخصوصية ندافع عن انغلاق الهوية الثقافية على مختلف الثقافات، إذ باسم ذات الانغلاق ننظر إلى كل ما هو آت من ثقافة أخرى على أنه غريب وغيريّة تهددنا، ينبغي رفضها وإقامة جدار عازل يحول دونها والتأثير فيها أو غزونا خشية تحولنا عما نحن عليه، أي خشية أن نفقد مقوماتنا فنفقد هويتنا أو نعيش أزمة هوية. فهل لا يكون الاعتزاز بالانتماء إلا بالانغلاق والتعصب؟
- ألا يستتبع القول بالانغلاق دفاعاً عن الخصوصية رفض كلّ تواصل مع الآخر وإحلال العنف محله بما يعنيه من يأس من الإنساني أو إدعاء احتكاره أو ادعاء الأفضلية والاعتراف بضرب واحد من التعامل بحكمه منطق الصراع أو الصدام؟

● ألا يدفعنا هذا تجاوزاً لمأزق الهوية إلى القطع مع الفهم البسيط والضيق للهوية؟ أما إذا افترضنا الطابع المركب للهوية أي هوية تتحدد على ضوء عوامل مختلفة ومتعددة، فإن الكونية قد تفهم بما هي أفق الخصوصية، فبأي معنى نفهم الكونية بما هي أفق الخصوصية؟ فما الكوني؟ وما مشروعية القول بالكوني أو الدفاع عنه؟ وبأي معنى يعدّ الكوني أفقاً وفضاءاً للخصوصية؟

● لا يُعدّ الكوني مفهوماً مضاداً للخصوصية بل هو فضاءها وإطارها إذ يجيل الكوني على المشترك والذّي يكون محلّ إجماع و اتفاق و لذلك فهو عامل توحيد ووحدة، فهو الواحد الذي يستوعب الكثرة، ألا يدفعنا هذا القول إلى مقارنة الكوني من نماذج تفكير مختلفة، نموذج يتأسس الكوني فيه على المشترك والجوهري و نموذج يتأسس الكوني فيه على المختلف و المتنوع؟ ألا يفضي ذلك إلى التمييز بين كوني الماثلة يقوم على مقارنة طبيعية للكوني و بين كوني الاختلاف يقوم على مقارنة وظيفيّة للكوني؟

● فعلى مستوى الطبيعة يجيل الكلي على ماهية ثابتة، على ما هو نوعي في الإنسان و على ما هو مشترك بين البشر أو ما يوحد الجنس البشري. أما على مستوى الوظيفة يمكننا أن نعتبر الفكر كما الكلام الوظيفة النوعية للإنسان أي مجال الكوني، دون أن ينفي هذا الذي نعتبره كونياً الخصوصية، فإذا كانت اللغة خاصة نوعية و كلية فإن الألسن متعددة، و إذا كان الفكر مجال الكلي فإن تفكيرنا مختلف و إذا كان الرمز مجال الكوني فإن الرموز تختلف، وإذا كان المقدس حاضراً في كل المجتمعات فإن صورته وفعله وفعالته تختلف. ألا يفيد هذا أن الإنساني لا يستقيم ما لم تأخذ مأخذ الجدّ واقع الكثرة في الخصوصيات دون نفي الوحدة التي يعبر عنها الكوني؟

● على ضوء هذا القول ألا يبدو استشكل العلاقة بين الخصوصي و الكوني مفتعلا و لا مبرر له؟ ألا تبدو العلاقة من البداهة بحيث لا تثير من جهة المفهوم إخراجاً طالما أن علاقة الكل بالجزء و العام بالخاص و الوحدة بالكثرة علاقة تضمن بديهية، فلم إثارة مشكل يبدو لا وجود له إلا بصورة وهمية؟

● يبدو أن الواقع الإنساني بما يتضمنه من تناقضات هو ما يثير مشكل العلاقة هذا. فالكوني من جهة الواقع ليس بمثل النقاء الذي نصوره من جهة المفهوم وهو ما يدفعنا لإثارة علاقة الكوني بالإيديولوجي و بالإنبتيقي، فأى معنى للكوني إذا ما قاربناه إيديولوجياً؟ و أي معنى له في دلالاته الإنبتيقية؟

يفهم الكوني الإيديولوجي بما هو كوني هيمنة، هيمنة تتخذ من الكوني أداة لتحقيق الهيمنة، ليتحرّك الكوني بذلك ضمن أفق العقل الأداتي، أو الحسائي، أفق المصلحة بدل الحقيقة أفق النجاعة بدل القيم، وهو ما يؤشر على أزمة تواصل، إذ بقدر ما تشتد أساليب الهيمنة العولمية أو الكوني العولمي بقدر ما تشتد مقاومة الخصوصيات و تشتد مبررات انغلاقها، ليتحوّل الدفاع عن الخصوصية مواجهاً للهيمنة، بما تعنيه المواجها من سيادة منطق الصراع و الصدام، و غلبة منطق القوة و اللامعقول، و حلول لغة العنف بدل لغة الحوار.

● ألا ينبغي أن يفهم من هذا أن الدفاع عن الخصوصية لا ينبغي أن يجمل على معنى رفض الكوني و إنما رفض كوني الهيمنة أو كوني الموت دفاعاً عن كوني الحياة أو كوني كلية الإنسان و وجوده النوعي؟

يفهم كوني الحياة بما هو كوني مبدع خلاق منفتح، تميزه قوى الفعل لا قوى الانفعال أو هو كوني إنبتيقي؛ ألا يجيلنا الزوج فعل/انفعال إلى رفض منطق الانغلاق؟ فالتقافة المبتنة هي التي تحشى الالتقاء بالآخر و التفاعل معه، أما الثقافة الحية فهي التي تملك القدرة على اللقاء بالآخر دون أن يكون هذا اللقاء فاتلاً. أليس الكوني في معناه الإنبتيقي ما به نعيش على حدة [خصوصية] و معا [كونية]؟ أليس كوني الحياة هو أن يحافظ كلّ منا على خصوصيته دون نفي الآخر و نفي حقه في أن يعيش خصوصيته؟ ودون رفض الوقوف على أرض مشتركة قوامها قيم كونية ينبغي احترامها و الدفاع عنها و مشاكل كونية تجمع الإنسانية في همّ واحد و مصير واحد؟

● تفترض معالجة جملة هذه الإشكاليات النظر في العلاقة الممكنة بين الخصوصية و الكونية [علاقة تناظر-تشاطر-تكامل-تقابل...] و ما تثيره من مفارقات، إذ يمكن مبدئياً القول بأن الخصوصية تستدعي الكثرة والتنوع و الفوضى، في حين تحيل الكونية على الوحدة و النظام. فهل يعني ذلك أنه ليس بالإمكان التفكير في هذه المسألة إلا وفق ما تسمح به هذه الثنائيات، أي الفردي في مقابل الكلي و الكثرة في مقابل الوحدة و النظام في مقابل الفوضى؟ ألا تترجم هذه الثنائيات عن رؤية اختزالية تنتهي عادة إلى الانتصار لقطب و التضحية بالآخر؟

● ألا تتحوّل هذه الثنائيات على مستوى التجربة البشرية إلى مفارقات تتلخّص في تمزق الإنسان بين انشداده إلى الخصوصية و التفرد و توفقه إلى الكونية.

● فكيف يمكن إذا للخصوصية أن تنفتح على الكونية دون أن تفقد خصوصيتها؟ ألا يمكن النظر إلى الكونية بما هي الحفاظ على الخصوصية؟ أم هل علينا اليوم أن نختار ما بين الخصوصية و الكونية؟ ألا يمكن للكونية أن تكون إطار الخصوصيات؟ فبأي معنى يمكن أن ندافع عن الخصوصية و نعيشها دون القطع مع الكونية؟

- و إذا اعتبرنا أن الكوني قيمة نوعية فهل علينا اليوم أن ننقذ الكوني من مخاطر الفراغ الأنطولوجي الذي قد تولده الدعوات المدافعة عن الخصوصية أم علينا أن ننقذ أنفسنا من كوني لا يفيد إلا صورة مجزأة للعدم؟ ألا ينبغي أن نتميز بين كوني ينبغي إنقاذه وبين كوني ينبغي أن ننقذ أنفسنا منه؟
- قد تختلف صور الثقافات، و قد تتعدّد نظم عيشها، وهو تعدد لا يشرّع لأحد الحكم على الآخر بالوحشية أو البربرية أو التخلف أو إعدام حقه في الاختلاف؟ تعدد يدفعنا إلى النظر للاختلاف بما هو علامة ثراء لنقبه اختلافا نستمدّ منه ما به و ما من أجله نتواصل شريطة التمييز بين فعل توأصلي و آخر استراتيجي، تميّزا يصب في اتجاه إنقاذ الكوني من الكوني و تحرير الإيتيقي من الإيديولوجي أو إنقاذ أنفسنا من كوني طلبا للكوني.

الرهانات و الراهنية

3

- *الوعي بالطابع المركب للهوية الإنسانية.
- *التمييز بين الدلالة الايديولوجية للكوني و الدلالة الفلسفية.
- *تشريع حكمة العيش معا.
- *اقرار مبدأ التسامح بدل التعصب.
- *الراهنية: نحيا اليوم سيادة الكوني الايديولوجي و همينة العولمة.
- صراع الثقافات و صدامها.
- تراجع عن الكوني و اليأس منه.

تخطيط مفصلّ للمسألة

4

المفاهيم و السياقات	المعاني	كيفيات للتفكير	الدروس و السندات
		1. التمرين الأول:	الدرس الأول: في السؤال عن الخصوصية
	الهوية	الاعتراض على موقف (ص198)	[مساءلة الهوية] تايلور (ص124)
	الآخر	{ وثيقة من الهوية إلى الهاوية }	[ازمة هوية] - أدونيس (ص173)
الثقافة culture			الدرس الثاني: الكوني فضاء الخصوصية
الحضارة civilisation	التواصل	2. التمرين الثاني:	[في تقريب الاختلاف]لفي ستر اوس(ص134)
العولمة mondialisation	المقدس	تحديد دلالة مفهوم(ص198)	الدرس الثالث: مطلب الكوني و واقع العولمة
الانظمة الرمزية	الصورة		[العالمي و الكوني] بودريار(ص175)
		3.التمرين الثالث:	[الوحدة و التنوع] موران(نصّ مقترح)
السياقات:			
الأنثروبولوجيا	الاختلاف		

الاستشراق	القدرة على التأليف	هل يجعل الاختلاف الحوار مستحيلاً؟
-----------	--------------------	-----------------------------------

PHILOFOU

19-12-2011

الخصوصية و نفي الكونية

* " أن أعرف من أكون يعني أن أعرف الموقع الذي أحتله " تايلور
* "لم يعد الكوني قادراً للاستجابة لمطلب الاعتراف و لا لحاجة الهويات الثقافية المختلفة " تايلور



"...و حل سؤال من أنت؟ محل سؤال : إلى أي جانب أنت؟" هنتجنتون



" يمثل التعصب بالنسبة إلى التشاؤم ما تمثله العدوى بالنسبة إلى الحمى
وما يمثله الغيظ بالنسبة إلى الغضب " فولتير



" إن الهوية صيرورة ذاتية للحدانة ومرتبطة تاريخياً بها. لم يكن الإنسان
المندمج في مجتمع تقليدي يطرح مشاكل الهوية كما نعمل نحن اليوم. رغم
أنه عملياً كان يعيش فردانية " جون كلود كوفمان: ابتكار الذات



" الإنسان يخلق نفسه، و لا يصل إلى خلق نفسه تماماً إلا بمقدار ما يتجرد من القداسة و يجرد العالم
منها. القدسي هو العقبة بامتياز أمام حريته " مرسيا إلياد - Sacré et profane - ص 187



الخصوصية من الهوية إلى الهاوية

الكوني بما هو فضاء الخصوصية

"لا تكفُّ الهوية عن جمع الشطايا وتركيبها، فهي نسق مستقر يحفظ المعنى
ويسيجّه، ونموذجها هو الكلية:" ج. ك. كوفمان ابتكار الذات، نظرية في الهوية



" إن قطرة الماء تشارك في عظمة المحيط حتى و إن كانت لا تعي ذلك؛ لكن بمجرد أن ترغب في
الانفصال تجفّت تماماً " المهاتما غاندي - كلّ البشر إخوة -



"هذه فروقات ولودة مبدعة في الحقيقة، ومن خلالها بالذات تمّ إحراز التقدم." لفي ستراوس



الكوني من المماثلة إلى الاختلاف

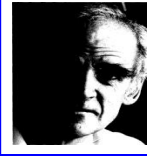
" ينتشر الروح في التاريخ في كثرة من الأشكال لا تنضب و حيث يتمتع بذاته. " هيجل



" لقد تَلَفَحَ الانسان بالأشكال اللغوية و الصور الفنية و الرموز الأسطورية أو الشعائر الدينية حتى أصبح لا يرى شيئا و لا يعرف شيئا إلا بواسطة من هذه الوسائل المصطنعة " كاسيرار- مقال في الإنسان-



"أظن أن الفضيلة الأكثر أهمية هي التواضع ، يعني القدرة على تقبل كون الآخرين ليسوا مثلنا، بأن ليس لدينا نموذج عالمي، بأن هناك طرق أخرى لوجود كائنات بشرية بأن طريقتنا ليست إلا طريقة ضمن طرق أخرى متعددة.[...] و غياب هذا التواضع هو الذي يمنعنا من رؤية ما يوجد غالبا أمام أعيننا : اختلاف الآخرين. لذا أظن أن الفضيلة الرئيسية التي يتوجب غرسها هي التواضع." تايلور



" أنا أتكلم لكوني لست وحيدا؛ و حتى في حالة التكلم مع الذات...فإني أرجع إلى ذاتي بوصفي آخر" غوسدورف



" يعيش الإنسان في عالم رمزي، و ما اللغة و الأسطورة و الفن و الدين إلا أجزاء من هذا العالم " كاسيرار



" أن يكون الإنسان في حاجة إلى المطلق لا يناقض العقل[...] بينما يقمع العقل عندما يعيق تعيين هذه القيمة نشاط الذهن في أي مجال كان" جيل غاستون غرانجي- La raison - ص116



" في نظام البصري أو الفيديوقراطية صار بإمكان المرء تجاهل خطابات الحقيقة و الخلاص و إنكار الكليات و المثل، و لكن لم يعد بإمكانه إنكار قيمة الصورة... و ما يرينا العالم هو أيضا ما يعيننا عن النظر إليه" ريجيس ديبراي- حياة الصورة و موتها- ص289



" تمثل وسائل الاتصال مصدر انزال [...] إن الاتصالات تحقق التماثل بين الناس و ذلك بعزلهم" هوركهايمر و أدرنو- ديالكتيك العقل- ص98



الكوني بين الإيديولوجي و الإيتيقي

" إن الإرهاب ليس حفيد تاريخ الفوضى و العدمية... إنه ابن العولمة" بودريار



"إن العولمة تؤسس لديانة توحيدية كونية جديدة هي ديانة السوق" غارودي



"لا نعلم إلى حد الآن ما إذا كانت العولمة تمثل الأمل الأخير أم هي سوء الطالع الأخير بالنسبة للإنسانية" إموران



"...العلاج الوحيد هو إيجاد، في كل من هذه الحضارات، الأشخاص القادرين على التحاور، على الكلام. يجب ربط الاتصالات و التأييد المتبادل، بهدف إعادة متطرفينا إلى صوابهم، لأن من البديهي أن المتطرفين يوجدون في كلا الجانبين." تايلور

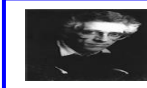


كوني الموت و عولمة الإنسان

" إبراز الآخر كعدو لنا هي لعبة جد سهلة للعب عوض الحوار. فعلا، تشتبك حرب الحضارات هذه، لأنه يتم إقناع الناس من هذا الطرف و ذلك بان كل الآخرين هم ضدنا بأن ليس هناك شخص يمكن التخاطب معه في الجانب الآخر. "



إن الذات تحتاج إلى الآخرين، ليس لأن كل شخص على حدة لا يكتمل وجوده إلا بهم، ولكن لأن الفضيلة تتجلى من خلالهم.



" يمكن أن ينطلق تواصل في مجتمع متحررَ حقق الرشد لأعضائه ليصل إلى حوار خال من السيطرة" هيرماس



"علينا أن نتصور وحدة تضمن التنوع و تميزه، و أن نتصور تنوعا ينخرط في وحدة. إن الوحدة المركبة لهي هذا بالضبط، ... إنها وحدة مركبة خلاقة" إ.موران



من الهوية إلى الهاوية



" كيف يجب أن نكون نحن أنفسنا، والجمال أننا لسنا نحن أنفسنا؟ وكيف يمكن لنا أن نكون أنفسنا، دون أن نعرف ما نكون، حتى نكون على يقين من أننا نحن الذين نكون؟"
هيديا جيز: الأعمال الكاملة ج 25 □ ص 49

فِي اسْتِشْكَالِ الْهُويَّةِ:

لعلّ ما يبرّر إستشكال **الهوية** اليوم هو الإعتراف بأنّها مفهوم غير قابل للتجاوز في الوضع البشري الراهن، إلّا إذا تمّ تذليل التعرّض الذي يصاحب التعريف من جهة ويصاحب الراهن من جهة اخرى، إعتراف يقرّ في البدء بأننا أمام مشكل مزدوج يطال المفهوم و الواقع ، و المشكل يصبح أكثر تعقيدا إذا كان المفهوم يؤثر في الواقع، و إذا كان الواقع في المقابل يدعو إلى مراجعة المفهوم، فما يصيب هذا يؤثر في ذلك، مشكلا يشبه مشكل الجسيم في الفيزياء الكوانطية، فنحن إزاء مفهوم تحديد تجلياته في الواقع يفقدنا القدرة على ضبط دلالاته، و ضبط الدلالة يؤثر في مسار المفهوم وتجلياته الواقعية^[1]، ولكن هذا الإعتراف لا يعني عدم القدرة على عقلنة هذه الظاهرة أو تفكيك عناصر تواجهها في المجتمعات البشرية.



المشكل إذا لا يختزل في واقع الهوية أو راهنها فحسب بل يشمل كذلك المفهوم ذاته، إذ يبدو مفهوما غامضا وملتبسا رغم بدهته، أو هي بدهة غير قابلة للفهم، إذ كما كان الدفاع عن الهوية والقول بالخصوصية محرّكا للتححرر، أو عامل وحدة للجماعة، أصبحت الهوية اليوم عنصر تمايز وتباعد واختلاف ومبرّرا للتعصّب والإنغلاق؛ هذا المكون "الثابت"، كان أحيانا المنظم الأساسي لإعادة بناء العلاقات بين البشر، وأحيانا أخرى العائق الأساس أمام التواصل و الحوار؛ وهذا الثابت المتحوّل الذي ظهر منبها للوعي ومحددا للنضج و صانعا للمعنى والقيمة، ظهر كذلك مكبلا للإبداع وعامل انغلاق و تحجّر و صنموية، مفهوما يشدّ بين أطرافه وحدة متكثّرة تحيل على فروقات ولودة، و كثرة مفتتة تفيد معنى التفكك والهشاشة. و بالفعل فكما يعكس الراهن " مرحلة القلق المفهومي"، يعكس كذلك توترا بين تصاعد أقلييات تدافع عن حقها في امتلاك هوية مخصصة تدافع عن "النحن" الثقافي، و بين نزعة عميقة للحدثة، ترتبط بمنطق الانتصار للفردانية والإعلاء من شأن "الأنا"، أو توتر يعبر في الجهة المقابلة عن فائض هوية ذوّب الأنا في نحن و حوّل الدفاع عن الخصوصية تعصبا، و جعل من التعصّب هوية، و دفع الهوية نحو الهاوية.

وقد اكتسح هذا المفهوم اليوم مجمل العلوم الإنسانية، ولكن لكل إكتساح استتبعاته السلبية؛ فنجاح انتشار مفهوم ما يكون دائما على حساب فهم حقيقي للدلالة وتفهم دقيق للواقع. ولذلك لا معنى للحديث عن المفهوم في

1 - مشكل الهوية ينكرنا بمشكل هيزنبرغ مع الجسيم في الفيزياء الكوانطية و مبدأ اللاتين أو علاقات الارتباب. فهذا المبدأ معناه انه لا يمكن قياس خاصتين فيزيائيتين (كالمكان و السرعة (كالجسيم كمي (كالإلكترون) بلحظة معينة دون وجود قدر من عدم التكد من أحد الخاصيتين أو كليهما. فإذا عرفنا مكان الإلكترون بلحظة أصبح مستحسلا معرفة سرعته بدقة، لأن الكترونا متحرّكا في لحظة من الزمن (خلال فترة زمنية تتناهي إلى الصفر) سيبدو ساكنا. فإذا هناك قدر لا يمكن معرفته ولا نستطيع أن نكون على يقين منه.

غياب فهم وتفهم للواقع، و على هذا الأساس يجب أن يهتم السؤال لا بالمفهوم فحسب وإنما براهنيته^[2]؛ فما الهوية؟ وما الذي يُشرع للحديث عن الهوية اليوم؟ أو بماذا نفسر هذا الاهتمام المتزايد بمسألة الهوية؟ وهل من منفذ يحررنا من مزالق القول بالهوية أو مخاطر الخصوصية؟ وهل بمقدور الفيلسوف معالجة الأعراض المرضية للهوية من تفكك وهشاشة أو من تعصب ورجسية؟ وهل للفلسفة اليوم الادوات النقدية اللازمة لتفكيك مقولة الهوية دون أن تتحوّل خطاباً عن الهوية أو ضدها أو خطاباً من أجلها؟

مرحلة البلورة : المفهومة و الوجود

الهوية هي ما به يعرف الفرد ذاته ويتعرّف عليها، ولذلك يمكن تعريف الهوية بأنها " الشفرة التي يمكن للفرد بفضلها أن يعرف "ذاته" في علاقته بالجماعة الاجتماعية التي ينتمي إليها، والتي عن طريقها يتعرف عليه الآخرون باعتباره "شخصاً" منتماً إلى تلك الجماعة، وهي شفرة تتجمع عناصرها العرقية على مدار تاريخ الجماعة وتراثها الإبداعي وطابع حياتها"^[3]، فالهوية ليست الوجه وسنة الولادة والعلامات الفارقة بل هي أكثر من ذلك بكثير، فما هو هذا الكثير الذي يعبر عنها أو تعبر الهوية عنه؟ وكيف تتشكّل على صُعد مختلفة؟ و الذات و وعي الذات والمعنى الذي تضيفه الذات على الأشياء، إنها "الاطار الإيتيقي" الذي "يحدد الوعي و المعنى" على حد عبارة شارل تايلور، وفي كل تحديد تضيق خاصة إذا كان تحديداً لمحدّد هو الهوية ذاتها، إذ تعتبر محاولة الإحاطة بها إطاحة لها؛ ولذلك هي تفيض على التحديد.



فيم القول بالخصوصية: الهوية و الإقليبات

لم يكن الإنسان المندمج في مجتمع تقليدي يطرح مشاكل الهوية كما نفعل نحن اليوم. رغم أنه عملياً كان يعيش فردانية. إننا إذا نلج عصر الهويات لأنها لم تعد من البداهة التي تبررّ عدم المطالبة بها، بل هي إشكال لأشكال متغيرة يلزم نحتها وانشاؤها. و هذا يعني أنّها أصبحت مسؤوليّة كلّ شخص، وهذا يثير مشاكل حقيقية، كما يشير لذلك عالم الاجتماع ألان إيرنبرغ^[4] لقد بيّن في كتابه "التعب من الذات" كم هي مضمّنة مسيرة البحث

² - راجع مشكل الهوية لا ينفي اهتمام الفلاسفة حتى قبل سقراط بهذا المفهوم، لكن لا شك أن الإشكالية المعاصرة لمفهوم الهوية لا تعود في أصلها إلى التراث الميتافيزيقي. فنجد مع بارميندس أو هراقليطس حديثاً عن الهوية بمعنى : هو ذاته -أو عينه - و الغيرية أو الآخر (le même et l'autre) ويعني هذا المفهوم في الفلسفة الشيء ذاته، وترجم عن ذلك بقولنا: إن "أ" هو "أ"، والمعصود به ثبات كنه الشيء واستمراره. ومبدأ الهوية يشكل مع مبدأ الثالث المرفوع أساس المغالطة القديمة.

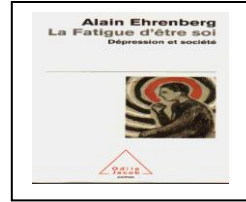
³ - رشاد عبد الله الشامي، كتاب إشكالية اليهودية في إسرائيل الصادر عن سلسلة عالم المعرفة، عدد 224.

⁴ - أ. إيرنبرغ، التعب من الذات، الانتساب والمجتمع. نشر أوليفر جاكوب، 1998، وطبعة أخرى في 2000.

عن الهوية إذ يقول: "إن الاكتئاب هو بلا ريب العرض المرضي الأشد بروزاً لهذه الصعوبة الجديدة في التحديد الشخصي للهوية".



"La dépression et l'addiction sont les noms donnés à l'immaîtrisable quand il ne s'agit plus de conquérir sa liberté, mais de devenir soi et de prendre l'initiative d'agir. Elles nous rappellent que l'inconnu est constitutif de la personne, aujourd'hui comme hier. Il peut se modifier, mais guère disparaître - c'est pourquoi on ne quitte jamais l'humain. Telle est la leçon de la dépression. L'impossibilité de réduire totalement la distance de soi à soi est inhérente à une expérience anthropologique dans laquelle l'homme est propriétaire de lui-même et source individuelle de son action. Alain Ehrenberg : La fatigue d'être soi, Poche, Odile Jacob, 1998

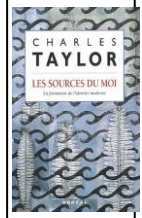


هكذا ظهر بسرعة الجانب السلبي لهذه الثورة: فللحرية ثمن غالٍ. وفي الواقع يتميز الدخول فيما يسميه أنطوني جيند بـ "الحداثة المتقدمة"⁵ بدرجة متزايدة من التأمل: فالناس يتساءلون عن كل شيء، مما يجعل سلوكهم متروكاً باستمرار. وفي هذا يوجد مفتاح الهوية بالنسبة لكوفمان الذي يقول: "يندرج الفكر السؤول ضمن منطق الانفتاح، فهو يحطم اليقينيّات، ويشكك فيما اعتبر مكسباً نهائياً. على خلاف ذلك لا تكفُّ الهوية عن جمع الشظايا وتركيبها، فهي نسق مستقر يحفظ المعنى ويسيجّه، ونموذجها هو الكلية" إنما لا يمكن للهوية أن تؤدي هذه الوظيفة إلا بشكل مؤقت⁶.

إن أول ما يعنيه مفهوم الهوية يكون أول مأخذ عليها، فالهوية بهذا المعنى هي العودة القوية للفرد، وهذا يمكن أن يشكل مشكلة مقلقة، كشف البعض منها شارل تايلور.



En effet, un individu peut se définir lui-même. C'était différent à d'autres époques, au Moyen Âge par exemple. Le fait d'accorder autant d'importance à l'identité individuelle est quelque chose de récent. Aujourd'hui, on reconnaît que les individus ont un rôle à jouer dans la définition de leur propre identité. Évidemment, personne ne peut se définir totalement, et chacun s'inscrit dans un contexte et des traditions spécifiques. Mais il est admis que les individus peuvent, dans une certaine mesure, choisir parmi ces traditions celles qui leur conviennent, ou tenter de les redéfinir, comme l'ont fait les mouvements féministes ou gays ces dernières années. Ce phénomène s'est d'ailleurs accentué dans la deuxième moitié du XXe siècle, avec ce que j'appelle "l'ère de l'authenticité". C'est l'époque où fleurissent, par exemple, les théories et les pratiques du "développement personnel". Il faut prendre la mesure de ce fait : la quête de soi est un aspect fondamental de l'identité moderne. Charles Taylor - Le Point.fr - Publié le 15/03/2011 Propos recueillis par FRANÇOIS GAUVIN



ب(فكرة الهوية) ربما لم يكن إلا انعكاساً لحالة حضارية من المفروض أن لا تتجاوز بضعة قرون. لكن هذا يعني أن الهوية الشهيرة - والتي كثر عنها الكلام - تكتسي معنى جديداً..".

يعكس في الواقع الحضور المكثف للمفهوم العودة القوية للفرد في مجال العلوم الاجتماعية والإنسانية. فالفرد يتصدر كل شيء. لكن من الملاحظ أن الدراسات حول الهوية كثيراً ما بيّنت أهمية المؤسسات في بناء الهوية. وهذا لا يمنع من الإقرار بأن بعض الخطابات في الموضوع تخطئ حين تغيب بسهولة دور الإكراهات الاجتماعية

⁵ - يتحدث جيند عن "الحداثة المتقدمة" وليس عن (ما بعد الحداثة)، لأن هذه المرحلة الجديدة لا تشكل قطعة مع الحداثة بقدر ما تمثل شكلها الأقصى والأكثر تطرفاً.

⁶ - من جهته حاول الفيلسوف الكندي شارل تايلور في كتابه "أصول الأنا" أن يتتبع نشأة الهوية الحديثة والفردانية عبر تاريخ الفلسفة وتاريخ العقليات وبحسبه فإن الهوية الحديثة تركز على ثلاثة جوانب: أولاً: اكتشاف أو ابتكار السرية الداخلية (القدس الأعظم، وموتني، وديكارت، ثم جون لوك. فقد كان دور هؤلاء حاسماً، إذ بدأ الإنسان شيئاً فشيئاً يتعلم أن ينظر إلى نفسه باعتباره "أنا" باطني). ثانياً: تضمين الحياة المعية (ودور البروتستانتية هام هنا، لأنها تشتم الحياة المعية عبر: العمل، وصناعة الأشياء المفيدة في الحياة، والأسرة، والزواج...). ثالثاً: علمة المجتمع وكان من المفروض - عند تايلور - ألا تحطم الفردانية التي تميز مجتمعاتنا الحديثة الروابط التي توجد بين الناس.

⁷ - في الحلقة الدراسية التي أدارها بمعهد فرنسا، سنة 1974/1975 حول موضوع الهوية. لم يستطع إخفاء نزاعه من هذه الميول الرجسية التي تمثل لها نهاية قريبة.

و سلطة المؤسسات. وإذا كان بناء الهوية يتم خصوصاً في التراتبية التي ينظم عبرها كل شخص انتماءاته المختلفة، فإنه من جانب آخر يمكن لبعض الهويات الجماعية أن تهيمن على هذا الشخص وتتحكم فيه. ذلك أن الهويات -على المستوى الجماعي- تشجع أحياناً سياسات سكونية و صنيّة تخدمها غايات رجعية ومخجلة. وكما لاحظ ذلك فرانسوا بايار، فإنه "لا توجد هوية طبيعية تفرض نفسها علينا بقوة الأشياء (...). بل لا يوجد إلا استراتيجيات تقوم على الهوية، يقودها بوعي فاعلون معروفون أو معينون: الحزبيون الشيوعيون الكبار من صربيا والذين تحولوا إلى وطنيين متطرفين، وكذا متطرفو الهوتو برواندا، والجميع مدعوم بمليشيا خاصة. وكذلك لا يوجد إلا أحلام أو كوابيس تتعلق بالهوية، نؤمن بها لأنها تدهشنا أو ترهبنا؛" و نحن نلمس هذه السيطرة في مجتمعاتنا العربيّة و الإسلاميّة حيث تهيمن الهويات الجماعية على الأفراد؛ و إيديولوجيا "النحن" على مواقف "الأنا"، وهي سيطرة تدفع بالهوية نحو الهاوية، هاوية التبعية والتعصب والتحجر، و تساهم في اغتراب الذات وذوبانها، سيطرة لا تنتج إلا عقولا معدة سلفا للتعليب و التوجيه. فهل يجب إذن هجر مصطلح الهوية الذي افتقد إلى الوضوح المفاهيمي أو ارتبط كثيراً بإيديولوجيا الهيمنة و التعصب؟

الهوية كيان بسيط ام مركب؟

يمكنّ التجذّر في الهوية من معرفة الذات و التعرّف عليها - كما قلنا أنفاً- و من إقتلاع الإعتراف من الآخر، إذ أتعرف بفضل هويتي على كل من هم مثلي وكل من هم مختلفين عني⁸. وحيث أن لكل آخر هوية فإن كل من هم مثلي سيتعرفون عليّ كمشابه لهم وسيعرفون بي واحدا منهم. إن مثل هذا التعرف والاعتراف المتبادل بين الشخص ومجموعته، عبر الاشتراك في نفس الهوية، قضية بالغة الخطورة. فالرهان الأساسي ليس التميّز الذي فرضته ظروف العيش المشترك و لا حتى التمايز والتفاضل في العلاقة بالمجموعات البشرية الأخرى، وإنما تبادل الحماية داخل المجموعة لدرء الخطر الحقيقي أو الوهمي الذي يمثله الآخر...

و تتشكل الهوية بفضل جملة من العلاقات المادية والرمزية [اللغة] + [الأسطورة] + [الصورة] + [المقدس] التي تربط وتوحد عددا من الأفراد و هم في حالة صراع ضد مجموعة مشابهة في الجوهر مخالفة في المظهر. تكون الهوية إذا في استبطان الشخص لحدود المجموعة التي تعطيها الحماية والتي يجب عليه حمايتها لا لشيء إلا لتواصل بسط حمايتها عليه.

⁸ - ثمة توجهان متناقضان في تكوين الهوية. الأول هو البناء على الضدّ؛ تتشكل هويتي على أساس [التضاد] مع الآخر وذلك على أساس جملة من العلامات الموضوعية مثل الجنس و اللون و اللباس و اللغة الخ؛ أما التوجه الثاني فهو البناء على المماثلة؛ تتشكل هويتي هنا على شبيه مع الآخر في الشكل و اللون و اللغة و المعتقدات و التاريخ الخ.

نحن لا ننتمي لقبيلة ، لحي ، لوطن ، لأمة ، لثقافة ، بمقاسمة المنتمين إليها العلامات الخارجية المميزة فقط ، ولكن بمقاسمتهم مسئولية الحماية المتبادلة والدفاع عن الوجود المشترك وتحسين ظروفه. وفي آخر المطاف فإن لبّ الهوية هو انتماء مسئول ومسئولية انتماء، حيث يكونّ الأنا مع من يقاسمه الوجود المشترك "النحن"، لتحافظ "النحن" على هذا الإطار الذي بقدر ما يجمعنا يذكّرنا باختلافنا عن "الهم" و لعلّ هذا ما دفع مايكل بيليج للقول: يجري استخدام تعبير "نحن we, us" في الصحف اليومية ليذكّرنا على نحو مطرد بأننا جزء من أمة وبأننا مختلفون عن الآخرين".

أ- الهوية البسيطة أو فخ الهوية:

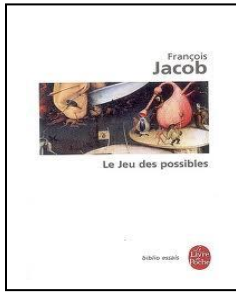
يمثلّ التراث في عمومومه مخزون الهوية التي تستمد منه كلّ مقوماتها و أسسها، و نحن عندما نفكرّ في الهوية باعتبارها تحيل على ذاكرة الفرد "الأنا" و الجماعة "النحن" ، نفكرّ فيها باعتبارها تمظهرها و تموضعا لهذا التراث، لذلك كثيرا ما عدّ التراث تأكيد للهوية ، ويضعنا هذا المعنى أمام أطروحة تقول بضرورة العودة إلى الذاكرة إلى الماضي أي إلى التاريخ، و لكن مشكل هذه العودة أنها لاتعترف بالتاريخ ولا بمنطقه⁹، إذ قد تتحوّل هذه العودة وهذا التأكيد ارتداء في أحضان الهوية البسيطة، هوية لكيان واحد، فربط الهوية الحالية بالتراث الماضي يرمي بنا حاليًا في منزلق الهاوية و السكونية و الانغلاق، فالنظرة إلى التراث قد ترتبط بفلسفة عن الهوية قائمة على رفض الآخر. و هي نظرة تعتبر «الآخر» طرفا منفصلا عن "الذات" وبالتالي تقذف به خارجًا وتنفيه وتحاربه وهذا سيؤدي إلى انغلاق "الذات" ؛ فتعمد كل اثنية إلى ترسيخ "هويتها" وتزكي تراثها وموروثها بالقدسية وتظهر "الهوية" بشكلها الخالد، فتصبح عملية إلغاء "الآخر" لحظة بناء حاسمة في هذه الهوية. وكل فكر أو إنتاج مستمد من الحضارات أو الثقافات الأخرى، هو فكر "دخيل" أو مستورد، وهذا ما يجعل الالتزام بالأصالة نوعا من الانحياز والانغلاق ضمن ذات حضارية غير معلومة الحدود، يخلق خصومة ثقافية أو نفسية مع كل الثقافات الأخرى.

يتولّد عن التسليم بالهوية البسيطة أو الجوهر البسيط المنغلق على ذاته والذي لا يحتاج في وجوده لغيره، دفاعا مميّتا عن الخصوصية، و باسم الخصوصية ندافع عن جوهر الهوية الثقافية في مواجهة مختلف الثقافات، و باسم ذات الانغلاق ننظر إلى كل ما هو آت من ثقافة أخرى على أنه غريب و غريبة تهديدنا، ينبغي رفضها و إقامة جدار عازل يحول دونها و التأثير فينا أو غزونا خشية تحولنا عما نحن عليه، أي خشية أن نفقد مقوماتنا فنفقد هويتنا أو نعيش أزمة هوية. و لا شك أن من بين أهم استتبعات مثل هذا الموقف القائل

⁹ - إن التاريخ يكون ملغيا عندما يبرغ على شكل "قوة دافعة" تحركنا إلى الأمام، غير أنه يصبح مضرا حين يأخذ شكل "قوة جاذبة" تدعونا إلى العودة إلى الوراء.

بالانغلاق دفاعا عن الخصوصية رفض كل تواصل مع الآخر وإحلال العنف محلّه بما يعنيه من يأس من الإنساني أو إدعاء احتكاره أو ادعاء الأفضلية و الاعتراف بضرب واحد من التعامل يحكمه منطق الصراع أو الصدام .

بهذا المعنى يكون التعصب استتباعا من استتباعات مخاطر¹⁰ القول بالخصوصية، عندها يتحوّل القول بالخصوصية هذيانا أو هوسا؛ وعندها لا فرق بين الدفاع عن الهوية أو السقوط في الهاوية؛ وعندما يعوّض الجنون خطاب العقل والتعقل، ويستحيل التسامح تهاونا و التهاون خيانة أو هرطقة؛ و يتحوّل المتعصب الناطق الرسمي باسم الهوية والتراث وباسم الموت و الحياة؛ وعندما تصاب الهوية بداء التخشب و التحجّر والصدء أو عندما يسكن القول بالخصوصية أروقة الكهوف و المغاور و الجبال، لن تكون الهوية إلا فحًا نسقط فيه او غطاء نواري فيه الهاوية.



"Rien n'est aussi dangereux que la certitude d'avoir raison. Rien ne cause autant de destruction que l'obsession d'une vérité considérée comme absolue. Tous les crimes de l'histoire sont des conséquences de quelque fanatisme. Tous les massacres ont été accomplis par vertu, au nom de la religion vraie, du nationalisme légitime, de la politique idoine, de l'idéologie juste ; bref au nom du combat contre la vérité de l'autre, du combat contre Satan."

(François Jacob -Le jeu des possibles / 1981)

ب- الهوية المركبة:

التراث يبقى تأكيدا للهوية و لكن المشكل يكمن في طبيعة تعاملنا مع هذا التراث، و طريقة تصرفنا مع الذاكرة، لأنه حسب شكل التعامل و حسب طريقة التصرف تحدد الهوية، و تتغير من معناها البسيط و المنغلق ، إلى معناها المركب و المنفتح أي من معنى الذاكرة الراضية لمنطق التاريخ إلى معنى الذاكرة التاريخية¹¹. الهوية المركبة إذا: تنبني على الانطلاق من مفهوم أنه لا وجود لجوهر ثابت و أصيل و مميز لمجتمع ما أو لأمة ما أو للنحن الثقافي، و فكرة الذات مقابل «الذات» لتعارض معها أو لتنفيها غير موجودة، و الآخر هو أنا، و الذات قابلة للتغيير و التبديل، و بناء عليه فإن الحضارة الأخرى و المفاهيم و الأيديولوجيات كلها و كل ما يحمل هذا الآخر من مخزون حضاري ممكن أن يدخل و يمتزج مع الذات فيغيرها و يطورها أو لا يطورها. وهنا لا يعود نفي الآخر جزء من منظومة بناء الهوية بل يصبح الآخر وجود قائما داخل «الذات» أو وجودا يسكن في عمق الهوية و معها . وفي هذه الحالة لا تظهر خصوصية الآخر و كأنها "الغزو الثقافي" أو "الاستعمار الفكري" بل نعثر في

¹⁰ - ليس هناك شيء أكثر خطورة من التعصب، لأن التعصب نقي للممكن و المحتمل و الآخر، بل هو نقي للذات ذاتها، و ليس هناك من حلّ لدرء داء التعصب إلا بعودة نور العقل و شعة ديوجن.

¹¹ - يتحدث عصام العطار في كتابه كلمات عن خطر الجمود الذي قد يصيب التراث كما الهوية إذ يقول "كيف نغلب الجمود، بل كيف يمكن الجمود في عالم تتجدد معلوماته و معانيه و مطالبه و وسائله.. باستمرار لا بد لنا من التجدد الدائم و الإبداع المتواصل و الجهد المضني في كل مجال.. و إلا فقدنا حياتنا و وجودنا القاعل المؤثر و أراحنا الركب البشري عن طريقه و وقف بنا إلى هامش الهامش أو هوة التاريخ. فذهبنا جهاد كما يذهب الزبد و غناء السيل و محبنا من لوحة الحاضر و المستقبل و تحولنا إلى نكري من ذكريات الماضي البعيد" عصام العطار، كلمات، الدار الإسلامية للأعلام، بون، 1999، ص 285.

خصوصية الآخر على "فكر آخر" ، وتصبح الذات كونية لا تُحد بحدود، ويصبح خطاب الآخر هو حوار الهوية، وتصبح التعددية أحد أهم خصائص الهوية، هوية كونية خارج كل الهويات، هوية مركبة ، علاقتها بماضيها وحاضرها ومستقبلها مبنية على غنى تعددي لا محدود، تتجاوز كل الحدود الجغرافية والسياسية وكل التقسيمات الدينية والعرقية والمذهبية والإثنية . وأمام هذا الطرح لا يوجد فكر "مقاوم" مقابل " غزو" ولا "أصالة" مقابل "عمالة فكرية" ، لا توجد ثقافة بل ثقافات، من جهة الكثرة و التنوع و الاختلاف في الفضاء الإنساني، أي من جهة "كثرة الوحدة" ؛ و لا توجد ثقافات بل ثقافة من جهة "وحدة الكثرة" على حدّ عبارة إدغار موران.

لا يمكن أن يكون الكوني فضاء للخصوصية و الاختلاف إلا إذا اعترفت الهوية بالطابع المركب الذي يحددها ويميزها، لأن الهوية المركبة تجمع في آن الحق في الإعتراف بالإنتماء و الحق في الاختلاف، وهي فرصة الإنسان الوحيدة للخروج من انغلاقه و للالتقاء بالكوني، و بالفعل بفضل الطابع التركيبي للهوية يتسع أفق الانتماء، من عالم النحن الضيق – حيث الفكر الخاص و الإيديولوجيا الخاصة و الثقافة الخاصة و الطقوس الخاصة و المقدسات الخاصة و اللسان المخصوص- إلى عالم الارض فضاء مشترك، حيث الفضاء الإنساني ككل و حيث **الهوية الكوكبية**. و لكن إذا كان فهم الهوية في معناها المنفتح و المركب يظهر الكوني و كأنه الفضاء الذي قدّ حسب مواصفات الخصوصية، فهل من معنى لاستشكال العلاقة بين الخصوصية و الكونية؟ و هل من معنى للحديث عن نفي طرف للآخر؟ بل و هل من معنى للحديث عن مشهد الإرهاب و إرهاب المشهد؟

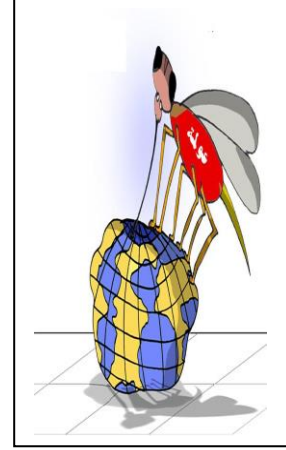
الهوية و العولمة : الطريفة و الصياد

بداية العلاقة بين الخصوصية و الكونية يبدو أنها لا تتعدى حدود النظر و التفكير، لأن الواقع العنيف و الصدامي للهوية البسيطة أو للهوية الهاوية، يقابله واقع كوني إيديولوجي هيمني، ينتقل بنا من منطق الصراع الإيديولوجي إلى منطق الاختراق الثقافي ، مم يدفعنا للتشكيك في العلاقة من جديدة، لا علاقة الهوية بالعولمة فحسب، بل علاقة العولمة بالكوني ذاته.

فالكوني العولمي من جهة الواقع ليس بمثل الصفاء و البراءة التي رسم معالمها مفهوم الكوني. و نحن نفهم الكوني العولمي على أنه كوني إيديولوجي ، إيديولوجيا تتخذ من الكوني أداة لتحقيق الهيمنة، ليتحرك الكوني بذلك ضمن أفق العقل الأداتي، أفق المصلحة و النجاعة بدل أفق الحقيقة و القيم، وبقدر ما تشتد أساليب الهيمنة العولمية أو الكوني العولمي بقدر ما تشتد مقاومة الخصوصيات و تشتد مبررات انغلاقها، لأننا في ظل هذا الكوني العولمي نحرز الخصوصية من هاوية الهوية، و ندفع بالخصوصية نحو هاوية التفكك و الاستيلاء، ألا

ينبغي أن يفهم من هذا أن سقوط الهوية في هاوية الموت و التعصب هو في الحقيقة رفض للتفسخ والاضطهاد، و أن الدفاع عن الخصوصية لا ينبغي أن يحمل على معنى رفض الكوني و إنما رفض كوني الهيمنة أو كوني الموت دفاعاً عن كوني الحياة أو كوني كلية الإنسان ووجوده النوعي؟ فالعولمة تطارد الهوية وتلاحقها وتحاصرها وتجهز عليها ، وفي دائرة هذه المطاردة تعاند الهوية أسباب الذوبان والفناء .

وعندما تختزل النظرة إلى العالم في البعد التقني أو ضمن أفق العقل الأداتي ، ولا ترى العالم و لا الإنسان، بل تراه تدفقات إلكترونية ورموزاً، فلا غرابة عندها أن يتقلص الإحساس بالمسؤولية الأخلاقية تجاه الآخر، وعندما تُختزل النظرة إلى العالم في البعد النفعي وتختل التوازنات البشرية مع الطبيعة، لا غرابة عندها أن تتقدم الآلة ويموت الإنسان؛ ففي زمن العولمة ربح الإنسان كل شيء و لكنّه خسر ذاته، فمنطق الاختراق الذي تساهم العولمة في تكريسه ينتج إما إنساناً حسب مواصفات السوق غولاً استهلاكياً يأكل و لا يشبع أو إنساناً بلا ذاكرة و بالتالي بلا هوية.



و بالفعل مع العولمة كل شيء يتسَلَّع، وذلك من خلال إعلان مُكثَّف و سماء تمطر صورا تعمل على بيع الأحلام ودغدغة المشاعر وإثارة الرغبات- في عالم محاصر بالرغبات- عن طريق مختلف أشكال الربط بين السلعة والصحة والجمال ... حتى الأوهام سُلعت؛ وإذا الوهم هو فضاء الرغبة فإن " العولمة تحولت مؤسسة لصنع الرغبة" كما لاحظ ذلك هربيرت ماركوز، فكل شيء يُطوى ويتقادم في سرعة ويظهر إنسان العصر كالمسافر في قطار فائق السرعة، لا يكون عن المشهد الخارجي سوى انطباعات عامة جدا تكفي لتعبّر عن الرغبة التي في الأصل لا نرغب فيها.

يجد إنسان هذا العصر نفسه في عزلة، ومع الوقت تصبح هذه العزلة أحد مظاهر الأنانية المنبثقة من العولمة في مفهومها المادي ومرجعيتها الاقتصادية النفعية الجافة، التي تتعامل مع الفرد كذات مجردة، تائهة، مفردة، مستسلمة للصورة ومنهرة بالتكنولوجيا، وهنا عندما تخرج الكلمة من الحاسوب أو الصورة من التلفزيون، فإن الإنسان يستقبلها بدون تفكير أو تأمل أو تذكّر، بل دون الحاجة لا للكلام ولا للتخاطب، ويتحول بذلك إلى مستهلك صور، أو مُستقبل كلمات مجردة من أي معنى إنساني، وبالتالي فإن العزلة التي يجد الإنسان نفسه فيها هي إحدى بذور العزلة و اللامبالاة .

و في عصر فقدت الكلمات معانيها و غابت اللغة و حلت محلها الصورة، أصبح الإنسان دون القدرة على التواصل و لا حتى على النظر، و" في نظام البصري أو الفيديوقراطية صار بإمكان المرء تجاهل خطابات

الحقيقة والخلاص و إنكار الكليات والمثل، ولكن لم يعد بإمكانه إنكار قيمة الصورة... و ما يرينا العالم هو أيضا ما يعمينا عن النظر إليه^[12] .

و لكن بؤس الإنسان زمن العولمة لا يدعونا للقطع مع الكوني أو اليأس منه، أو يدعونا للعودة إلى الهاوية حيث الهوية البسيطة، تجنباً للتفكك و الذوبان، بل يدعونا للدفاع عن كوني القيم أو كوني الحياة الذي نفهمه على أنه كوني مبدع خلاق منفتح، تميّزه قوى الفعل لا قوى الانفعال أو هو كوني إيتيقي؛ لا يزال الإنسان سؤاله بامتياز، أليس كوني الحياة هو أن يدافع كلّ منا على هويّته دون نفي هوية الآخر أو نفي حقه في أن يعيش خصوصيته؟ بحيث تتحقق حكمة العيش معاً، حكمة تنقذ الكوني من العولمي أو تؤنسن العولمة و تقتلع الهوية من الهاوية.

ليس هنالك اليوم ضرورة أكثر الحاحاً من ضرورة الدخول في صراع حقيقي لا يقطع مع العولمة، وإنما يقطع مع ما يكون ضدّ الإنسان وضدّ هذا الكوكب الذي بدت بعض الفواجع الطبيعية اليوم تعبر عن سخطها من الإنسان و من عدوان الإنسان على الإنسان والطبيعة في آن، ضرورة ملّحة تدعونا للوقوف في هذه المسيرة الصراعية مع عالمية المبادئ ضدّ عولمة المصالح أو مع أنسنة العولمة ضدّ عولمة الإنسان. و من المفيد كذلك أن نلاحظ في النهاية أنه من يُراجع التاريخ يكتشف دون جهد أن الأمم والشعوب تزداد انشغالاً بتاريخها وماضيها وتراثها حين يكون حاضرها مأزوماً و مؤشرات أسهمها الحضارية في هبوط، فالأزمات الكبرى التي تطل "أنا" الإنسان الحاضر تدفع به ألياً إلى البحث عن "الأنا" الماضي عبر الغوص والبحث عن مسوغات تاريخية تعيد لذاته المتصدّعة اعتبارها من جديد عبر اجترار الماضي "المجيد". المسألة تتعلق هنا بالقدرة على استثمار الأزمات و المآزق التي تصيب الجماعة أو الأمة، بحيث تكون المآزق مناسبة لإعادة النظر في مسألة الهوية و ليس مناسبة للعودة إلى الماضي البعيد للهوية، و بين الإعادة و العودة مسافة وعي و قدرة.

ادعاء تمثل الواقع و القبض على الحقيقة، الذي هو الوجه الآخر لاحتكار تمثيل الهوية و الأمة، من قبل نخب و شرائح نصّبت أنفسها وصيّة على القيم العامة، قد أدى إلى مزيد من الانقسام [...] اختلافات وحشيّة ونزاعات دمويّة تعصف و تدمر [...] .



نة تدعو إلى إعادة النظر في مسألة الهوية و في طريقة إدارتها و التعامل معها، بعد أن أمست أشبه بالداء أو العصاب المستحكم. بهذا المعنى ما نحتاج إليه هو الخروج من قوقعة الهوية ومعسكرات العقائد لكي نتعاطى مع خصوصياتنا ومعطيات وجودنا، بصورة حرّة و نقدية، وبطريقة حيّة مفتوحة على الأحداث والتطورات، و ذلك من أجل قلب الأولويات، و إعادة إنتاج الهوية بشكل يخرجها أكثر قوّة وفاعلية وحضوراً [...] ذلك أنّ الهوية القويّة و الفعالة، ليست ما يملكه المرء أو يعطى له، إنها ليست كياناً ماورائياً، و إنما هي ثمرة الجهد و المراس و الاشتغال على المعطى الوجودي بكلّ أبعاده، من أجل تحويله إلى أعمال وانجازات؛ إنها صناعة و تحويل، بقدر ما هي انبثاق و تشكيل، و الأخرى القول إنها بذية يعاد بناؤها باستمرار، خصوصاً عند بلوغ الأزمات أو الوقوع في المآزق. **PHILIPPE** علي حرب؛ "حديث النهايات" أفتوحات العولمة و مآزق الهوية ص 21 - 23

تتحول الهوية إلى مشكلة، حين يتم النظر إليها ككل مغلق ونهائي، أو حين يتم ربطها بالماضي، بالأموات، كما يقول الجابري. وتكون الهوية حلاً لحظة تعترف بانتسابها للتاريخ أو تقرّ بأنها " ابنة التاريخ "، وأنها غير محكومة بالوفاء للأصول، بل إنها قد لا تعني أحياناً سوى ذلك التمرد الخلاق والمستمر على فكرة الأصل والنقاء الثقافي أو العرقي.

إن وجود الثقافة سابق على هويتها ، ولما كان وجود الثقافة أمراً تاريخياً، فهوية الثقافة هي كذلك تاريخية. إذا الهوية سيرورة لا تكف عن التعيّن شأنها شأن الإنيّة، والنظر إلى الهوية الثقافية باقتلاعها من التاريخ فعل يتعارض مع منطق الثقافة ذاتها .

و بالتالي يجدر بالفلسفة اليوم أن تعيد صهر مقولة الهوية حتى لا يصيبها ما أصاب الإنيّة المنغلقة على ذاتها ، من مرض فقر المعنى، أو أن تهجر هذه المقولة "التي تتحدث إلى الناس" دون ان تتحدّث عنهم، لصالح مفاهيم أكثر تحديداً وأقل التباساً ، ورغم ذلك من الصعب أن نهجر مصطلحاً يعكس -في العمق- مشكلة اجتماعية، وإن كان في نفسه غامضاً^[13] . لقد بدأ المفهوم في التصدّع كما كان واقع الهوية، و لكن أليست الكتابة ضد مفهوم الهوية أو الدعوة إلى هجر هذه المقولة نوعاً من الكلام عنها ؟ ثم أليس من اللازم التظنّن على المواقف الراضية لمقولة الهوية كما طال تظنننا من أصابه داء الهوس بها ؟

نستعيد الاسئلة من جديد في اللحظة التي من المفترض ان نبني فيها موقفاً لأننا نعتبر ان لكلّ حلّ شروط تحققّ وأن غياب ما به يكون الحلّ ممكناً يفرز بدوره حلاً مصاباً بفقر المعنى، والشروط تبدأ من الذات و طريقة تعاملها مع النحن و من النحن و طبيعة علاقتها بالآخر الثقافي، حتى لا يكون النحن عبء على الذات و لا يكون الآخر عدواً يجب القضاء عليه، فالآخر "هو" نصف الهُو-يّة، المشتقّة من " الهو" وليست من " الأنا"، و كأنّ تحققّ الهوية لا يكون في غياب الآخر المختلف، وتطال الشروط العالم الذي نعيش فيه لأن أغلب الناس يعيشون في العالم دون أن يتعايشوا مع العالم، و أنه حان الوقت اليوم لنتحرّر من سلطة الرموز التي يتلخّف بها العالم فتحجبه عنّا، و أن نستعيد العلاقة الحميميّة بين الإنسان والطبيعة و لكنّها علاقة متحرّرة من كلّ أيديولوجيا و كلّ ميثولوجيا.

¹³ - من الموشرات على هذا التحول صدور كتاب حديث بهذا العنوان: هستريا الهوية أدريان- دار لوشيفن ميدي، 2004.

هل يجعل الاختلاف الحوار مستحيلا؟



ويعطلّ التواصل والحوار مع الآخر؟ وهل يعدّ الحوار باعتباره انفتاحا على الآخر تفريظا في حقّ كلّ خصوصيّة في الاختلاف؟

لحظة البلورة

للحوار، في الدلالة العامة معنى المجاوبة، أو مراجعة النطق والكلام في المخاطبة والتحاوور والتجاوب؛ وهو بهذا المعنى تبادل أفكار بين فريقين أو أكثر في إطار موضوع ما، حول قضية ما، بغية الاتفاق على صيغة حل أو اتفاق أو تسوية في شأن القضية التي هي مدار الحوار. ذلك أن الحوار في أحواله ومبانيه وغاياته قائم على الاعتراف المتبادل، وحق كل فريق، سواء كان فرد أو جماعة، في المشاركة المتكافئة في تقرير الصياغة النهائية لشكل ومضمون المسألة التي يجري الحوار بشأنها. فما الذي يحول دون تحقق مطلب الحوار؟



إن كل واحد من الكيانات الثقافية المتواجدة اليوم، يكاد يكون مستغلقا ومغلقا، إلى حد يبدو فيه أن الاختلاف بين هذه الكيانات الثقافية، هو اختلاف جذري لا سبيل إلى تجاوزه. وأن الممكن الوحيد هو إما إرادة الاستعلاء وبسط الهيمنة، أو لغة التعصّب والتحجّر والعنف، هي التي تطغى في السرّ والعلن، على العلاقات الثقافية السائدة! فضلا عن ذلك، يفرض على بعض الكيانات الثقافية أو الخصوصيات - أمام هيمنة كوني إيديولوجي أو عولي - خيارا واحدا: إما الاندماج والانصهار التدريجي في منظومة جديدة من القيم و مبادئ ما يُسمّى بالنظام العالمي الجديد¹⁴، وإما التقوقع والانكماش المُفضي مع مرور الزمن إلى العزلة المميّنة على عكس التفكك القاتل¹⁵. وإذا كانت العولمة تعمل على تكريس الثنائية والتمزّق والانشطار

14 - هذا ما دفع البعض اليوم للتشكيك في النظام العالمي الجديد باعتباره الوجه المعاصر لفكرة المركزية الثقافية.

15 - يميّز جان بودريار في كتابه السلطة الجهنمية بين الثقافات التي ماتت في خصوصيتها واعتبر أن هذا موت طبيعي، و بين الثقافة التي تموت من فقدان كل خصوصية، وهذا هو الموت العنيف على حدّ عبارة هوبز، وهذا ما يدفعنا إلى التمييز مع بودريار بين ثقافة ماتت و ثقافة قتلت.

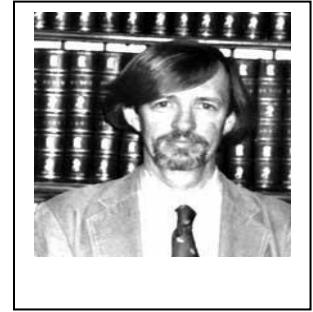
[يوجد هذا النص في الكتاب المدرسي [شعب علمية] تحت عنوان (العالمي و الكوني) ص175]

في الهويات الثقافية الوطنية؛ فهل من معنى إذا للحديث عن حوار حقيقي او صحي اليوم في زمن لا يعد فيه الكوني العولي إلا بالمزيد من التفكك والتفسخ والسطحية والابتذال أو مزيد من العنف والقتل والإرهاب؟ بل أكثر من ذلك هل من معنى للحديث عن ثقافة هويتها مكانتها السياسية وإطارها القيمة الاقتصادية؟ والعكس بأس وخطير إذ هل من معنى لسياسة يعاد تشكيلها وفق جغرافيا ثقافية¹⁶؟

والعولمة ليست هي المشكل الوحيد الذي يجب أن نواجهه اليوم، بل يجب أن نواجه نرجسية الآخر الثقافي، فالعقل الغربي يدافع عن العقل الكوني بالقدر الذي يسجن نفسه في ثقافة تضيق على العقل وتتعامل مع الآخر الأنا كغيرية أي كآخر لا يرقى إلى مستوى الندى¹⁷، بحيث يكون مبدأ نفي الآخر، ومنهج الشك في كل ما ليس أنا، مبدأ عقلانية الحداثة الغربية، فمنطق الأنانة كما أفرز الكوجيتو الديكارتي أفرز كذلك نظرة الاستعلاء والاقصاء. وقيم الحداثة، لا تخلو من مظاهر التوجّه الاستعلائي، سواء تمت باسم الدين أو باسم المقدس، أو الأخلاق، أو الحداثة، أو القيم الديمقراطية أو باسم حقوق الإنسان.



وغير بعيد عن هذا السياق، يشير الباحث توماس ماك إيفيلي، Thomas MC Evilly، في كتابه: الهويات الثقافية في أزمة¹⁸، إلى أن الهوية الثقافية الغربية ذاتها، تعاني من أزمة مسكونة بعقدة التفوق والاستعلاء على ما سواها من الهويات الثقافية الأخرى.



Thomas MC Evilly

16 - طرح صامويل هنتجتون في كتابه صدام الحضارات مشكل انخراط السياسي في الثقافي، و هو ما يفسر حسب رأيه الإنتقال من "سؤال إلى أي جانب أنت؟ إلى سؤال من أنت؟" و "على كل دولة أن تجد اجابة، إجابة تحدد هويتها الثقافية، و مكانتها في السياسة العالمية، كما تحدد أصدقاءها و أعداءها" [يوجد هذا النص في الكتاب المدرسي [شعب علمية] تحت عنوان (السياسي و الثقافي) ص171]

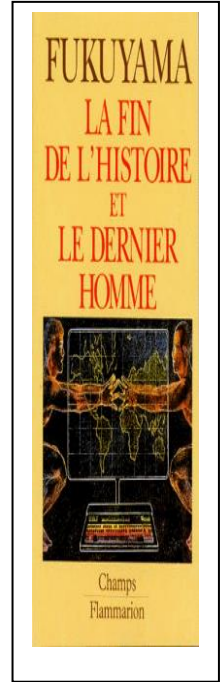
17- Sophie Bessis, L'Occident et les autres, Histoire d'une suprématie, Editions La découverte, Paris, 2001

18 - Thomas MC Evilly, l'Identité culturelle en crise, Traduction française, Editions Jacqueline Chambou, Paris, 1999



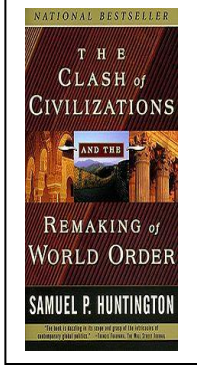
فرنسيس فوكوياما

ومن منطلق هذا التوجُّه الاستعلائي للثقافة الغربية عموماً، تُصرُّ كبرى الدول الغربية المهيمنة في عالم اليوم، على مصادرة حق الآخرين في الاختلاف. وعلى احتكار الحق، في بلورة القيم الحضارية والكونية لنفسها، وتُتكرِّ هذا الحق على الآخرين. فالغرب المتقدم، غير قادر على الاعتراف بالآخر، إذا لم يُرجع إليه هذا الآخر صورته ويعكسها في مرآته. و أي خروج عن قسَمات ومعالَم هذه الصورة، يعدُّ تخلفاً أو همجية¹⁹، وبذات المنطق تحدث المفكر الأمريكي فرانسيس فوكوياما، ليقول إن "الإسلام هو الحضارة الوحيدة التي ما زالت عصية على الاحتواء الغربي وعلى "الحدائثة".



وقد لجأ فوكوياما لتوضيح طرحه هذا إلى التناول الهيكلي لفلسفة التاريخ، ليقول بأنَّ " التاريخ سائر في خضم جدلية صراع الأفكار نحو انتصار مبادئ الدولة الليبرالية الديمقراطية" وعليه فإن العالم الذي لم تتحقق فيه الليبرالية الديمقراطية هو العالم التاريخي، عالم الصراعات القومية والإثنية والإيديولوجية والمذهبية، عالم " تطبيق القواعد القديمة لسياسة القوة " وإلى هذا العالم تنتمي الحضارة الإسلامية.

19 - كشف مونتانيو في المقالات كيف يكون ما لا يتفق مع الصورة أو العادة همجية أو وحشية إذ يقول لحظة تحدث عن سلوكيات الأقوام البدائية بأمريكا الجنوبية: "لم أجد في كلِّ ما قُدم لي همجية أو توحشا عند هذه الأمة اللهم إلا إذا كان كل واحد يسمي همجياً ما يتفق مع عوانده". [يوجد هذا النص في الكتاب المدرسي [شعب علمية] تحت عنوان (الهمجية) ص138]

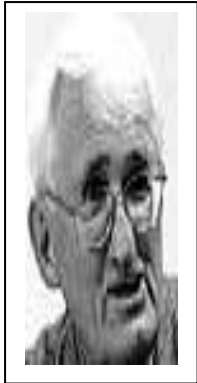


وعلى ذات الإيقاع، يعزف المفكر الأمريكي صامويل هانتنغتون، حيث يقول "إن الصحوّة الإسلاميّة هي رد فعل ضدّ الحداثة والتحديث والعمولة"؛ ويعتبر هانتنغتون ان صراع ما بعد الحرب الباردة ليس صراعا ايدولوجيا وإنما هو صراع حضارات " و " إن خطوط الانقسام بين الحضارات تحلّ محلّ الحدود السياسيّة والايدولوجية للحرب الباردة باعتبارها نقاط تفجر الأزمات والمذابح ."



Samuel P. Huntington

صحيح أنّ ما يميز الراهن هو ظهور أقليات ومجموعات تمتلك خصوصيات عرقية وعقائدية وفلسفية ودينية وأخلاقية وخصوصيات ثقافية مختلفة، ولعلّ هذا ما يفسر تعدد واختلاف طرق العيش والسلوكيات والممارسات، ولكن هذا لا يفضي ضرورة إلى صدام الحضارات، ولا إلى القول بتخلف ثقافة واكتمال أخرى، ثقافة لا تزال داخل التاريخ وأخرى أنهت حركتها التاريخيّة. وفي ظلّ هذا الراهن يتنزل سؤال تايلور عن الهوية: كيف يمكن الاعتراف بالاختلاف؟ كيف يمكن أن تتعايش هذه الأقليات بالرغم من اختلافها فيما بينها؟ ما هو المبدأ السياسي القادر على احتواء هذا التنوع في ذات الفضاء؟ أي المبدأ القادر على ضمان التعايش من جهة وعلى فرض الاعتراف بالاختلاف من جهة ثانية؟



هبرماس

وتكشف هذه الإشكاليات التي يثيرها تايلور نقده لمقترح [جون رولس] و[هبرماس] فيما يسمى "مبدأ الحد الأدنى المشترك" الذي ينتقل من الكثرة إلى الوحدة، ويكشف تايلور -في دفاعه عن الخصوصية- كيف أن هذه المبادئ والنماذج القائمة على الكوني وعلى التصوّر الكانطي لاستقلالية الذات غير قادرة على استيعاب الاختلاف هذا الموقف النقدي الذي ينطلق منه



جون رولس

تاييلور يدفعه لمساءلة الهوية من جديد ويدفعه للقول بأن الكونية هذا المبدأ الذي ورثناه من فكر الأنوار لا يتماشى مع راهن الاختلاف.

C.Taylor : « l'universel ne peut plus répendre a la demande et au besoin de la reconnaissance de differentes identité culturelles. »



C.Taylor : « la politique de la différence croît organiquement à partir de la politique de la dignité universelle ».

وانطلاقاً من هذا النقد لادعاءات الكونية و الكانطية و الحدائثة و استتبعاتها، يكشف تاييلور كيف انه باسم الكونية و مبدأ الحيادية يقع تجاهل الهويات المختلفة و الأقليات الاثنية، و إذا كانت الهوية تحيل في جوهرها على هذا "الاطار" الايتيقي-الذي من خلاله تدرك الأنا ذاتها و تضي معنى على العالم- فإن الكوني يجرد الإنسان من هذا الإطار ، أو يستعيز عنه بإطار سياسي يقتلعه من انتماءه الثقائي ليبقيه مواطناً، إذ يقول في ذلك: " إن أهم قيمة خسرنا الإنسان عند قيام الحدائثة هي كرامة المواطن والسبب هو البيروقراطية لأنه أمام هذا الكم الهائل من القوانين وتزايد طرق التأديب اللينة والانضباط الهادئ يجد المواطن نفسه يتصاغر أكثر ويتحرك ضمن حلقة مفرغة من الطغيان المتكرر والذي لا يقدر على مناهضته و تفاديه" و على هذا الأساس يجب أن نتحرر حسب تاييلور من النموذج الليبرالي باعتباره نموذجاً يقصي الاختلاف ويفرض نموذج المماثلة والتطابق، و قد طال نقد تاييلور – في نقده للكونية- الدولة والفكر التعاقدي الذي ساهم في إنتاجها على هذا النحو، فمفهوم "الإرادة العامة" الذي يمثل جوهر الفكر التعاقدي لجان جاك روسو، بل يمثل أفضل ما أنتجه الفكر السياسي الحديث؛ يمثل في الحقيقة الوجه الناصع للإختزالية وتضييقات الكلي السياسي، بل يمثل اللحظة التاريخية لموت "الإطار" الثقائي. إذ يكشف تاييلور أنه ليس من الممكن التحرر من الكوني إلا في ظل إدماج فكرة الاعتراف و هو إدماج يفصل بين " الشرف Honneur" بما فيه من دلالة تقرّ ضمناً بالفاضل؛ وبين " الكرامة Dignité" بما هي دلالة تقرّ ضمناً بالمساواة الاجتماعية والاقتصادية

و القطع مع فكرة التمييز بين مواطنين من درجة أولى وآخرين من درجة دنيا . وهذا الاعتراف أيضا يشترط تجاوز منطق الانغلاق على الخصوصية أو الإفراط في الاعتزاز بالانتماء الثقافي إلى حد الهوس والنجسية؛ فالهوية كما هي انتماء بما هي " إطار" هي أيضا إنشاء باعتبارها " أفق"، و هي بهذا المعنى تتشكل و تتحدّد بفضل تدخل الحوار أو ما يسميه تايلور العلاقات الحوارية التي تصنع بفضل جملة التوافقات أو "الملائمات" أو "التسويات" les accommodations (لجنة بوشار-تايلور²⁰) .

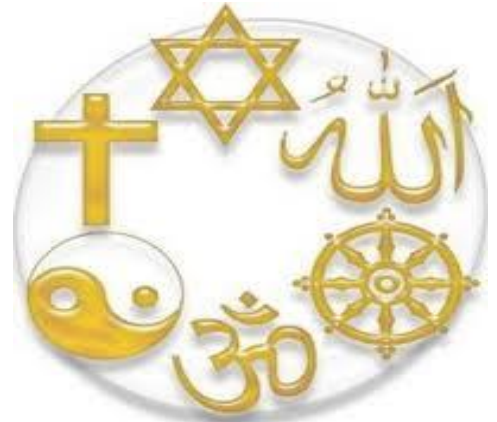


C.Taylor : La reconnaissance = "acceptation de valeur égale". = "conversation" entre diverses identités : "cette identité devrait se forger en conversation avec d'autres et implique une certaine reconnaissance"

← - لقد اعتبر شارل تايلور بأن الحوار المتبادل هو طريقة "إقناع" أساسها مبدأ الكرامة، ومنطلقها المصالحة المشتركة التي تجمع المختلفين في الخصوصية و المتكافئين في الكرامة، و هي طريقة تسعى إلى البحث عن أكبر قدر ممكن من الحقيقة التي يمكن للعقل أن يتوصل إليها عبر مناخ الثقة والاحترام و الكرامة". وبالتالي ليس الحوار دفاعا عن تعدد الثقافات فحسب multiculturalisme وإنما عن الفضاء البين ثقافي في inter culturalisme . والاعتراف بالاختلاف يعبر عن حاجة إنسانية إذ " تتحدّد هويتي من خلال علاقاتي الحوارية مع الآخرين"

١٦ تايلور: "إبراز الآخر كعدو لنا هي لعبة جد سهلة للعب عوض الحوار. فعلا، تشتبك حرب الحضارات هذه، لأنه يتم إقناع الناس من هذا الطرف وذاك بأن كل الآخرين هم ضدنا بأن ليس هناك شخص يمكن التخاطب معه في الجانب الآخر."

١٧ تايلور "...العلاج الوحيد هو إيجاد، في كل من هذه الحضارات، الأشخاص القادرين على التجاور، على الكلام. يجب ربط الاتصالات والتأييد المتبادل، بهدف إعادة متطرفينا إلى صوابهم، لأن من البديهي أن المتطرفين يوجدون في كلا الجانبين."



20 - يمكن العودة للموقع الرقمي www.accommodements.qc.ca لقراءة نموذج من الأسئلة التي طرحتها لجنة بروشار/تايلور على الجمهور.

يقتضي الحوار إذا السير سويًا ، في طريق التعقل والفهم والتفهم والتفاهم . من هذا المنطلق ، تصبح غاية كل حوار، هي السير إلى الأمام، في طريق الكشف عن الحقيقة بقدر الإمكان؛ من خلال ما يجلبها من رواسب الدغمائية والتعصب أو الريبية والتنكر. ولذلك يقوم السير نحو حوار ثقافي مبدع وخالق على عدة اعتبارات منها:

أولاً: التأكيد على أن الحوار ليس واجبا يفرض على أطراف عليهم التجاوب معه بدافع إرادة خارجة عنهم، بل إنه رغبة نابعة من الذات والخصوصيات الثقافية .

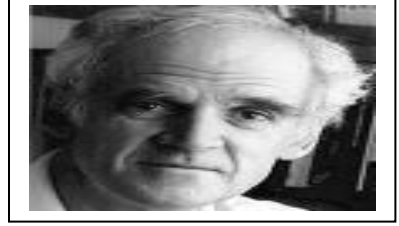
ثانياً: النظر إلى الآخر في غيريته، وخصوصيته . بما يحمله معنى النظر من دلالة الاعتراف والاهتمام، وإن لم أستطع النظر إليه في غيريته وخصوصيته، فإني أكون كمن يحاور ذاته، أو كمن يحاور كائن أبتكره وفق ما يريد .

ثالثاً: أن أحترم الآخر، هو أن أراه حيث هو، خارج عن أي اتهام معلن أو كامن، أن أقبل أن له الحياة التي أعطيت لي دون زيادة أو نقصان، فألتقيه حيث هو، وبالتالي أكون بذلك قد دعوته كي ينظر إليّ من حيث أقف، لا من حيث يريد لي الوقوف، أو يفترض أنني أقف، وأنظر إليه من حيث يقف .

رابعاً: إخراج الآخر من التعميم، ومن الصور التي رسمناها عنه أو رسمها عنه آخرون، هي خطوة أولى في سبيل تحرير ذاتنا من سجن الرؤية المعتمة بما يؤدي إلى تحرير الآخرين من سجن نظرنا . وكل لحظة حوار مع الآخر، تسمح بخلق نظرة جديدة عنه وعني، تجعلني أراه مولود في كل لحظة؛ ولعلّ هذا ما قصده موران حين قال: " أن نتكلم هو أن نولد مرة ثانية" .

على هذا النحو يكون الحوار عتبة الإنسانية، فإذا انتهينا في مسألة الإنية إلى ما قاله جون جاك روسو بخصوص الإنسان باعتباره "توقا إلى الاكتمال"، فإننا نعتبر مع تايلور أننا " نصير كائنات إنسانية متحققة فعلا بفضل استيعابنا للغات الإنسانية الغنية بالتجربة"

إن السمة الجوهرية في الحياة الإنسانية هي قيامها من حيث الأساس على طابع حوارى فنحن نصير كائنات إنسانية متحققة فعلا وقادرة على أن تعي ذاتها- أعني قادرة على أن تحدد هويتها بفضل استيعابنا للغات الإنسانية الغنية بالتجربة.



وإنني أستعمل هنا لفظ اللغة في المعنى الأكثر اتساعا. غير أنه يجدر أن نتعلم أنماط التعبير هذه عبر ضرب من التبادل مع الآخرين ذلك أننا في الحقيقة لا نتعلم اللغات الوافدة من أجل أن نتمثل ذاتنا ونعي بها، وإنما كذلك من أجل أن ننتقل نحن إلى الآخرين عبر هذه الأنماط التعبيرية نفسها وتتفاعل معهم من حيث هم مبدعون للمعنى وهكذا فإن انبثاق الفكر الإنساني لم يكن يوما فرديا ينجزه كل شخص على هواه بقدر ما كان دوما انبثاقا حواريا.

شارل تايلور- التعددية الثقافية - ص 49

Multiculturalisme, différence et démocratie, Paris, Aubier

بهذا المعنى نفهم الفرق بين الحوار والجدل وبين الحوار والنقاش، فالجدل طريقة كلامية تقوم على قاعدة "إن قتلتم كذا... قلنا كذا"؛ فالجدال سالب ينهض على أرض التناقض، والتضاد، والإبلاغ، والإرسال، والاستجواب، والمحااجة، ودحض ما لدى الآخر من أفكار، وافترض النقصان والضعف والبهتان والتهافت في اعتقاداته. والنقاش لا يشارك بالضرورة الحوار في أهدافه، ولذلك نقول إن في كل حوار نقاش ولكن ليس كل نقاش حوار. ولأجل ذلك يعدّ الحوار كذلك عتبة الفكر الإنساني.



ولعل هذا ما دفع مرلوبونتي للإقرار بقيمة الحوار، فإذا كان للغة حسبه دور في إدراك الغير، فإن لتجربة الحوار الدور الأساس والأكبر، إذ يقول في ذلك: "ينشأ داخل تجربة الحوار، بين الأنا والغير حقل مشترك، حيث يشكل فكري وفكره نسيجاً واحداً، تُستدعى فيه عباراتي وعبارات المُخاطب بواسطة حال النقاش، تتخرط في عملية مشتركة لا أحد منا يكون مبدعها. ثمة هاهنا وجود واحد لكلينا حيث يكون الواحد منا مساعداً للآخر في تبادل تام. وتتوحد منظورياتنا لنكون في عالم واحد. أتحرر في الحوار الراهن من ذاتي نفسها. وأفكار الغير هي حقا أفكاره، لست أنا من يشكلها، رغم أنني أتمثلها منذ انبثاقها أو أستبق ولادتها وحتى

الاعتراض الذي يوجهه إليّ المخاطب يقتلني من أفكار لم أدرك كيفية امتلاكها،

بحيث إذا ما أعرته أفكارا فإنه يدفعني لمعاودة التفكير فيها من جديد²¹ .

ولكن رفض الإنصياع لقيم الحداثة – كما بين ذلك تايلور- ليس في جوهره رفضا للقيم سواء كانت من صنع الحداثة أم غيرها وإنما هو رفض لقوى الهيمنة والاستغلال، وانتصارا للاختلاف والتنوع. وليس تقريظنا للاختلاف إلا اعترافا بمكانته؛ ولكن المهم هو الاستثمار الممكن إعطاؤه لظاهرة **الاختلاف الثقائي**. فإذا نحن تمادينا في اعتبار تلك الاختلافات، ذات طابع مطلق ولا سبيل إلى التوفيق بينها، وإذا نحن اكتفين فقط بجرد الصعوبات والعراقيل المنتصبة أمام مبادرات الحوار بين الثقافات، فإننا في نهاية المطاف، س نجد أنفسنا في عالم لا **تواصل** فيه ولا حوار؛ عالم كل طرف فيه يحرص على ألا يتكلم سوى لغته الخاصة، أو نجد أنفسنا في العالم الذي رسمه إما فوكوياما أو هنتنغتون.

ونحن نعتقد أن بمقدورنا تغيير وجهة نظرنا إلى واقعة **الاختلاف الثقائي** بحيث تصبح أكثر إيجابية. وفي هذا السياق يمكننا القول، إن احترام حق **الاختلاف الثقائي** مطلب مشروع، لأنه حق من حقوق الإنسان، الهدف منه مقاومة الاستلاب والاستتساخ والانقراض الثقائي، وفي الوقت ذاته هو الوسيلة الطبيعية للحفاظ على التعدد والتنوع الثقائي. إننا نسلّم بأن ليس هناك مجال للحوار الثقائي إلا مع وجود الاختلاف. فالمفروض أن الحوار الحقيقي، يجري عادة بين أطراف تختلف عن بعضها، في المعتقدات والتوجهات والرأي، ويستمد حيويته من عناصر الاختلاف وعدم التماثل. فما جدوى أن يحاور الإنسان مثيله ونظيره الذي يتفق معه في كل شيء؟ إن الثقافات المتعددة والمتنوعة، المنتشرة في الفضاء الإنساني، يدين بعضها لبعض ربما بأهم ما تملك. وكل واحدة منها هي في واقع الأمر، حصيلة تمازج وتلاقح. وهذا التمازج والتلاقح، الذي نادرا ما نجد من ينكر طابعه الكوني، يبين لنا أن الإبداع الثقائي، لا

²¹ -Maurice Merleau-Ponty *Phénoménologie de la perception* Gallimard, 1945, p. 407

يمكن أن ينمو ويزدهر في بيئة منكمشة على نفسها ومعزولة، وإنما هو على العكس من ذلك، يجد حيويته وخصوبته، في تضافر وتفاعل العناصر المختلفة عن بعضها.



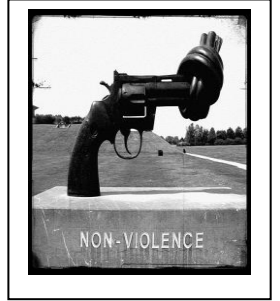
وثمة شرط آخر، من الضروري توقُّره لتفعيل أي حوار بين الثقافات، إنه مبدأ التسامح. ولا نشك في أن التحلي بفضيلة التسامح، في معناه الإيجابي، أي في معنى ألا يُنظر إليه على أنها منَّة وتنازل، بل على أنه اعتراف بحق المغايرة؛ إن التحلي بهذه الفضيلة، يمكن أن يساهم في إيجاد أرضية للتعايش والسلام بين الثقافات في عالمنا المعاصر؛ كما يمكن أن ينعش مبادرات الحوار بين الثقافات، لمواجهة مظاهر الكراهية والتهميش والنبذ والإقصاء، تجاه المنتمين إلى ثقافات ومجتمعات مُعيَّنة.

ولا نبتدع جديدا عندما نعيد إلى الذاكرة هذه الحقيقة التاريخية: إن مفهوم التسامح في سياقه التاريخي الغربي، ظهر أصلا في ظروف الحروب الدينية المذهبية²²، التي فرقت دول وشعوب أوروبا خلال فترة طويلة، وإن حمولته الأخلاقية ساهمت في تمثّل وامتصاص حدّة وعنف الصراع بين المذهبين الأساسيين للمسيحية الأوروبية آنذاك: الكاثوليكية والبروتستانتية.

إن التسامح من جهة، واعتماد المنظور المقارن من جهة ثانية، ضروريان جدا لاكتشاف الطابع النسبي لجميع المنظومات الثقافية البشرية، رغم ما قد يكون لها من عراقة وعظمة. أما الاعتقاد بالانفراد بامتلاك الحقيقة دون سائر البشر، فإنه يؤدي بالضرورة إلى الاستبداد والتعصّب الأعمى، ورفض الفكر الآخر جملة وتفصيلا.

22 - تحدثت تزيڤيتان تودوروف في كتابه اللانظام العالمي الجديد عن ارتباط مفهوم التسامح بالإرث الديني، و إن اعتبر أنه أصبح مفهوم التسامح اليوم أكثر اتساعا. [في الكتاب المدرسي -شعب علمية- نجد نص التسامح ص 136]

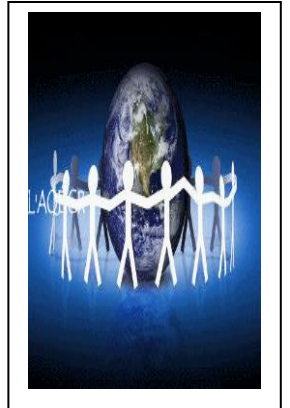
★ تنحو ثقافة الحوار إذا بالتدرّج، إلى أن تصبح بالنسبة لجميع الدول والشعوب خيارا ضروريا، ذلك لأن عالم الغد، لا يمكن تشييده على حتمية الصراع والعنف المتبادل بين الثقافات البشرية، نتيجة التقوق في عقْد التفوق والاستعلاء، ونتيجة النزوع إلى احتكار امتلاك الحقيقة ونشرها وتوزيعها. فالعالم قد يتحوّل إلى جحيم، إذا إنغلقت الخصوصيات في عزلتها القاتلة.



★ وهناك مجموعة من المفاهيم والقيم، في الأخلاق والحقوق والقضايا المعرفية، تعتبر قاسما مشتركا بين جميع الثقافات البشرية، وهي مؤهلة للتطوير نحو ما هو أفضل بالنسبة للجميع. كما أن المثل العليا المشتركة بين الديانات، كالعدالة، والتفاهم، والرحمة، والتواضع، والتسامح، والتضامن، والتشارك، والحوار، ونبذ العنف، ينبغي أن تجمع لا أن تفرّق، وأن تساهم في التضامن الأخلاقي لا في المواجهات الصّدامية بين الحضارات".



★ حقا إن ثقافة الحوار هي الحل الذي يكاد يكون مفروضا علينا، حتى لو كنا نعتقد في أعماقنا أن هذا الحل ليس بالمعجزة التي يمكن أن تحل جميع مشاكلنا مع الآخرين، وتذلل كافة العراقيل والصعوبات التي تعترض سبل تقدمنا وتنمية مجتمعاتنا. ولكن إذا كان ما قاله كلود ليفي ستراوس صحيحا: "أن العالم بدأ بدون الإنسان وسينتهي بدونه" فإننا نقول إن الأصح ألا تكون النهاية بفعل تدخل الإنسان، لأنّ المحنة التي لا يد لنا فيها تعدّ قدرا أم التي يكون علّتها الإنسان فإنها الجنون والعدمية...





الخصوصية و الكونية

"نشدان العالمية في المجال الثقافي، كما في غيره من المجالات، طموح مشروع، ورغبة في الأخذ والعطاء، في التعارف والحوار والتلاقح، إنها طريقة الأنا للتعامل مع الآخر بوصفه أنا ثانية، طريقها لجعل الإيثار يحل محل الأثرة، أما العولة فهي طموح، بل إرادة لاخترق الآخر وسلبه خصوصيته، وبالتالي نفيه من العالم. العالمية إغناء للهوية الثقافية، أما العولة فهي اختراق لها وتمييع".

محمد عابد الجابري

إحراجات المسألة:

-كيف يمكن للخصوصية أن تفتح على الكونية دون أن تفقد خصوصيتها؟ ألا يمكن النظر إلى الكونية بما هي الحفاظ على الخصوصية؟ ألا يمكن للكونية أن تكون أفق الخصوصية؟ هل علينا أن نختار ما بين الخصوصية والكونية؟ ألا تترجم هذه الثنائيات عن رؤية اختزالية تنتهي عادة إلى الانتصار لقطب والتضحية بالآخر؟

-إذا اعتبرنا أن الكوني قيمة نوعية فهل علينا اليوم أن ننقذ الكوني من مخاطر الفراغ الأنطولوجي الذي قد تولده الدعوات المدافعة عن الخصوصية أم علينا أن ننقذ أنفسنا من كوني لا يفيد إلا صورة مجردة للعدم؟

-ألا ينبغي أن نميز بين كوني ينبغي إنقاذه وبين كوني ينبغي أن ننقذ أنفسنا منه؟ وبأي معنى يمكن أن ندافع عن الخصوصية ونعيشها دون القطع مع الكونية؟

-إذا افترضنا الطابع المركب للهوية أي هوية تتحدد على ضوء عوامل مختلفة ومتعددة، ألا تفهم الكونية على أنها أفق الخصوصية، فبأي معنى تفهم الكونية أفقا للخصوصية؟ وهل يعني ذلك إمكان تجاوز القول بالكونية بما هي نفي للخصوصيات؟

- لكن ما دلالة الكوني وما مشروعية القول بالكوني أو الدفاع عنه؟ وهل من إمكانية للتمييز بين الكوني والكلية؟ ألا يمكننا أن نقارب الكوني من نماذج تفكير مختلفة كان نقاربه من جهة الطبيعة ومن جهة الوظيفة؟

-ألا يحيلنا هذا على النظر إلى الخصوصي بما هو فضاء الثقافات [الكثرة] والكوني على فضاء الحضارة [الوحدة]؟ ألا يبدو استشكال العلاقة على ضوء هذا القول بين الخصوصي والكوني مفتعلا ولا مبرر له؟ ألا يثير الواقع الإنساني بما يتضمنه من تناقضات مشكل العلاقة هذا؟ فهل الكوني من جهة الواقع يمثل النقاء الذي نصوره من جهة المفهوم؟ ألا يدفعنا هذا الاختلاف للتمييز بين كوني إيديولوجي وكوني إيتيقي؟ فأى معنى للكوني إذا ما قاربناه إيديولوجيا؟ وأي معنى له في دلالاته الإيتيقية؟

-ألا ينبغي أن يفهم من هذا أن الدفاع عن الخصوصية لا ينبغي أن يحمل على معنى رفض الكوني وإنما رفض كوني الهيمنة أو كوني الموت دفاعا عن كوني الحياة أو كوني كلية الإنسان ووجوده النوعي؟ أليس الكوني في معناه الإيتيقي ما به نعيش على حدة [خصوصية] ومعنا [كونية]؟ أليس كوني الحياة هو أن يحافظ كل منا على خصوصيته دون نفي الآخر ونفي حقه في أن يعيش خصوصيته؟ ودون رفض الوقوف على أرض مشتركة قوامها قيم كونية ينبغي احترامها والدفاع عنها ومشاكل كونية تجمع الإنسانية في هم واحد ومصير واحد؟

دواعي الإهتمام

-ما اقترن به واقع الاختلاف من صراع أو صدام وعنق مورش تحت شعارات مختلفة، فحرب الألهة أو الحرب باسم الدفاع عن حقوق الإنسان أو من أجل نشر قيم الحق أو الدفاع عن الكرامة الإنسانية أو باسم مقاومة الإرهاب.

-ما يسم الواقع الإنساني من تعدد وتنوع واختلاف، بما هو مؤشر على الكثرة وما يميز الإنساني من نزوع نحو الكوني، وما يمثل القاسم المشترك في الفضاء الإنساني بما هو مؤشر على الوحدة، أو الوجود النوعي للإنسان.

-ظهور أقلية تدافع عن حقها في الاختلاف والاعتراف بها بما هي وجود أو كيان مستقل، له هويته المميزة يبدو قبول الاختلاف مستعصيا على أذهان البشر خاصة حين يفقد العنصر المميز لهذه الجماعة أو تلك مقدسا ومثلا أعلى، مما يدعونا للتفكير في إبتيقا جديدة تتسع لإختلاف تبقيه إختلافا.

-نعيش اختراق ثقافات لخصوصية ثقافات أخرى باسم الكوني.

-انغلاق ثقافات معينة على نفسها دفاعا عن الخصوصية ورفضاً للكونية.

-قدر الخصوصيات أن يظل لقاء بعضها ببعض متارجحا بين وصل وفصل، لقاء بقدر ما نخشى بحدوده نخشى عواقبه...

-بحاصرنا العنف من كل صوب ليرسم لوحة قائمة لوجود غنساني توهم مصلحته في الإقتداء بالغالب لا في السير معه...

-بين الهوية والمقدس علاقة قرابة ونسب تغذيه بقدر ما تتغذى به وتحميه بقدر ما تحتمي به، ليكون المقدس ما يوجه الخصوصية توجيهها يتراوح بين الانغلاق والانفتاح، وبين الصدام والحوار...

-أصبحت العلاقات بين الدول تحدها جغرافيا ثقافية.

الهوية ومشكل التعصب



الهوية، محرّكة للتحرر+ عامل وحدة للجماعة + عنصر تمايز وفرادة واختلاف + منبّهة للوعي + محددًا للنضج...
الخصوصية / الهوية: يشد هذا الثابت المتحوّل بين أطرافه وحدة متكثرة تحيل على فروقات ولودة، وكثرة مفتتة تفيد معنى التفكك والهشاشة. لب الهوية هو انتماء مسئول ومسئولية انتماء.
عدّ التراث تأكيد للهوية: قد تصبح عملية إلغاء "الأخر" لحظة بناء حاسمة للهوية.
يتولّد عن التسليم بالهوية البسيطة أو الجوهر البسيط المنغلق على ذاته والذي لا يحتاج في وجوده لغيره، دفاعا مهميتا عن الخصوصية، وباسم الخصوصية ندافع عن جوهر الهوية الثقافية في مواجهة مختلف الثقافات، وباسم ذات الانغلاق ننظر إلى كل ما هو آت من ثقافة أخرى على أنه غريب وغيرية تتهددنا، ينبغي رفضها وإقامة جدار عازل يحول دونها والتأثير فينا أو غزونا خشية تحولنا عما نحن عليه، أي خشية أن نفقد مقوماتنا فننقذ هويتنا أو نعيش أزمة هوية.
استتبعات مثل هذا الموقف: رفض كل تواصل مع الآخر وإحلال العنف محلّه بما يعنيه من يأس من الإنساني أو إدعاء احتكاره أو ادعاء الأفضلية والاعتراف بضرب واحد من التعامل بحكمه منطوق الصراع أو الصدام.
عندها يتحوّل القول بالخصوصية هذيانا أو هوسا عندها لا فرق بين الدفاع عن الهوية أو السقوط في الهاوية؛ وعندما يعوّض الجنون خطاب العقل والتعلّل، يستحيل التسامح تهاونا والتهاون خيانة أو هرطقة؛ ويتحوّل المتعصب الناطق الرسمي باسم الهوية والتراث وباسم الموت والحياة؛ وعندما تصاب الهوية بداء التخشب والتجبر والصداء أو عندما يسكن القول بالخصوصية أروقة الكهوف والمغاور والجبال، لن تكون الهوية إلا الوجه المصنع للهاوية.

الهوية المركبة وقيمة الاختلاف

قيمة الاختلاف: الاختلاف، لا ينفي وجود قواسم مشتركة بين جميع الثقافات مهما اختلفت درجة تعقدها وأيا كان انتسابها إلى المجتمعات القديمة أو الحديثة، ولعل أبرز هذه القواسم: وجود اللغة، القدرة على الترميز، ابتكار أدوات، السعي إلى التنظيم، النزوع إلى المطلق والحاجة إلى رؤية للعالم تعيد تشكيله على نحو يسكنه المعنى. يقول كلود ليفي ستروس: "جميع البشر بلا استثناء يملكون لغة وتقنيات وفن ومعارف وتنظيمات إجتماعية إقتصادية سياسية... غير أن المقادير والنسب ليست دائما هي ذاتها عند كل الثقافات". يقول أيضا كلود ليفي ستروس: "لا يمكن للحضارة العالمية أن تكون شيئا آخر على المستوى العالمي غير تحالف للثقافات التي تحتفظ كل واحدة منها بخصوصياتها"

فضاء العالمية هو فضاء لقاء الخصوصي بالكوني والمحلي بالعالمي بحيث يكون العالمي إنفتاحا على العالم وإقرارا بحق الاختلاف والمساواة والندية بين مختلف الأمم والشعوب والثقافات.

الهوية المركبة: الهوية المركبة، تنبني على الانطلاق من مفهوم أنه لا وجود لجوهر ثابت وأصيل ومميز لمجتمع ما أو لأمة ما أو للثقافة، وهنا لا يعود نفي الآخر جزء من منظومة بناء الهوية بل يصبح الآخر وجود قائما داخل «الذات»، أو وجودا يسكن في عمق الهوية ومعها، وتصبح الذات كونية لا تحد بحدود، ويصبح خطاب الآخر هو حوار الهوية، وتصبح التعددية أحد أهم خصائص الهوية، هوية كونية خارج كل الهويات، هوية مركبة، علاقتها بماضيها وحاضرها ومستقبلها مبنية على غنى تعددي لا محدود. لا توجد ثقافة بل ثقافات، من جهة الكثرة والتنوع والاختلاف في الفضاء الإنساني، أي من جهة "كثرة الوحدة"، ولا توجد ثقافات بل ثقافة من جهة "وحدة الكثرة" على حد عبارة إدغار موران.

تتحول الهوية إلى مشكلة، حتى يتم النظر إليها ككل مغلق ونهائي، أو حتى يتم ربطها بالماضي، بالأموات، وتكون الهوية حلا لحظة تعترف بانتسابها للتاريخ أو تقر بأنها "ابنة التاريخ"، وأنها غير محكومة بالوفاء للأصول. أن الهوية مشروع مفتوح، وليست نظاما مكتملا.

يجدر بالفلسفة اليوم أن تعيد صهر مقولة الهوية، أو أن تهجر هذه المقولة "التي تتحدث إلى الناس" دون أن تتحدث عنهم، لصالح مفاهيم أكثر تحديد وأقل التباسا.

الحضارة العالمية: الحضارة العالمية التي ننشد هي جماع الخصوصيات، ضمن رؤية كونية تتأسس على ما هو إنساني في كل إنسان، رؤية ترى في الإنسان، في مجمل أفعاله وخصائصه بمثابة جزء من كل هو الكون بأسره على حد عبارة ميشال سار، وفي هذا المدى الكوني بالذات يبرز مفهوم المواطنة الكونية إذ "ليس لأي إنسان حق أكثر من غيره في التمتع بمناخ الأرض" كما كتب كانط.

المواطن الكوني فلسفيا، هو هذا الإنسان المدني العاقل المعترف بالغير في غيريته وبحقه في الاختلاف والمشاركة في القرار، إنه الإنسان المواطن وقد تحرر من ضيق الانتماء إلى الدولة/الأمة أو من ضيق الهويات القومية الضيقة (حق الضيافة العالمية، كانط) ليكون قانونه الحقيقية ومطلبه الحرية ومبدؤه المشاركة وشركاؤه في المواطنة البشر جميعا دون استثناء أو تمييز أو إقصاء، لأن الوطن ليس مجرد فضاء جغرافياً بل هو بالأساس حرية وحقوق ولعل هذا ما دعا كانط إلى الحديث عن دستور كوني من أجل سلام دائم بين الشعوب. لذلك لا بد من ربط مفهوم "حوار الحضارات" بمفهوم المواطنة العالمية وما يحيل إليه من مفاهيم مجاورة كمفهوم حقوق الإنسان ذات البعد الكوني الذي يتجاوز الحدود. إن لقاء مثمرا بين الثقافات يمكننا تاريخيا حسب بول ريكور، وما يتوفر لدينا من وسائل تكنولوجية واتصالية ومعلوماتية هائلة يمكن أن يساعدنا على التقدم أشواطاً في هذا السبيل، سبيل لقاء الإنسان بالإنسان، لأن "قدر الإنسان هو أن يكون مثل النحل داخل الخلية"، كانط.

الهوية وواقع الاختلاف

الاختلاف: مقولة كثيرا ما أربكت الهويات المنكشمة وكثيرا ما أخرجت العقل الذي درج على منطق الواحد وتناسى أن الإنسان واحد وكثير.
يتحدد الاختلاف في سياق الخطابات الأنثروبولوجية والنبوية -على الأقل- باعتباره حقا وميزة تتمتع بها كل مجموعة ثقافية دون استثناء. إنه الحق في انتهاج أساليب ومنظوريات ورؤى تؤمن من خلالها المجموعة تكيفها مع محيطها وإشباعها لحاجاتها المادية والروحية، نشداننا للبقاء وحسن البقاء. وإذا سلمنا بأن لكل مجتمع ثقافة، مهما بدت بسيطة في تركيبها أو محدودة في وسائلها ونجاحاتها، فإن التمايز والاختلاف هو القاعدة في حين يكون التماثل والتنميط هو الاستثناء. وبذلك يبرز الاختلاف كنفيس للخلاف، إنه ما يؤشر لهذا الطرف أو ذاك بالاعتراف بالغير في غيريته واحترام خصوصياته بمنأى عن كل هيمنة وإقصاء أو مفاضلة عرقية أو ثقافية. إنه لقاء التمايز، لقاء يكون فيه الآخر أنا آخر وليس آخر غيري

آليات الصدام:

آلية الإنلاء: المواقف الانطباعية التي ترسم صوراً قائمة عن الآخرين، فهم "قروود الأرض" أو "الأشرار" أو "بيض القمل" أو "البرابرة" كما ذكر ذلك ليفي ستراوس في كتاب "العرق والتاريخ". وهنا يلعب التخيل والترميز في اللغة دورا هاما في التعبير عن الرغبة في إلغاء الآخر بتحقيقه أو استهجانته.

آلية النزاع: التنازع من أجل البقاء، وهو صراع فرضته ندرة خيرات الأرض، صراع نلمسه لدى أولئك الذين يقول عنهم ابن خلدون "رزقهم في رؤوس رماحهم"

آلية التعصب: التعصب والتمايز على الذات إذ يتحول الاعتزاز بالانتماء إلى نرجسية تولد بدورها سادية تحول وجهة الطاقة العدوانية من داخل نظام الحضارة إلى خارجه (هرويد، "مستقبل وهم"، ص18).

آلية التفوق: المركزية الثقافية: اعتقاد الضرد الجازم بسمو المجموعة التي ينتسب إليها ورفعتها، إلى درجة اعتبارها مركز الثقافات جميعها وأفضلها، وهي قناعة تقوم على عقدة تفوق واستعلاء، تقصي الآخر أو تجعله في مرتبة الدون. وقد بين كلود ليفي ستروس أن التمايز العرقي هو حكم مسبق يعكس اعتقاد جماعة بشرية ما، بأن الإنسانية تنتهي عند حدود المجموعة القبلية أو اللغوية، وأحيانا عند حدود القرية. فهي لا ترى خارج تلك الحدود إلا الغرباء ومن هم أدنى من البشر.

الكوني وفق العولمة

إن الواقع العنيف والصدامي للهوية البسيطة الذي ينتقل بنا من الهوية إلى الهاوية، يقابله واقع كوني إيديولوجي هيمني، ينتقل بنا من منطق الصراع الإيديولوجي إلى منطق الاختراق الثقالي، مم يدفعنا للتشكيك في العلاقة من جديدة، لا علاقة الهوية بالعولمة فحسب، بل علاقة العولمة بالكوني ذاته.

يتحرك الكوني العولمي ضمن أفق العقل الأداتي، أفق المصلحة والنجاعة بدل أفق الحقيقة والقيم، ويقدر ما تشد أساليب الهيمنة العولمية أو الكوني العولمي بقدر ما تشد مقاومة الخصوصيات وتشد مبررات انغلاقها. فالعولمة تطارد الهوية وتلاحقها وتحاصرها وتجهز عليها، وفي دائرة هذه المطاردة تتمتع الهوية وتعاود أسباب الذوبان والفاء.

في زمن العولمة ربح الإنسان كل شيء ولكنه خسر ذاته... أصبح إنسانا بلا ذاكرة وبالتالي بلا هوية.

ولكن هل يدعوننا بؤس الإنسان زمن العولمة للقطع مع الكوني أو الياس منه؟

تري العولمة ذات القطب الواحد، أنه من حقها تشكيل العالم وفق رؤاها ومصالحها، وباسم العالمية باتت تطال المجالات القومية والوطنية في مقوماتها الأساسية: اللغة، الفكر، العادات وحتى أنماط العيش والسلوك، فالأمر يتجاوز الابتزاز الاقتصادي والاستعباد السياسي وفرض الشروط والقيود بالقوة إلى الاختراق الثقالي وتهديد الخصوصيات وذلك بالعمل على صهرها ضمن المنظومة الثقافية الغربية عبر ما تنشره تكنولوجيا الاتصال من ثقافة استهلاكية تُوَجِّح الرغبات وتقمعها، تزرع التمنيظ وتدعيه عيشا كريما، تصنع الرأي وتدعيه حرية للفكر، تعد "بمجتمع المعرفة" وتسوق لـ"مجتمع المشهد"، تدعي العالمية وتساهم في إنسانيته، مما ساهم في تعريبه وعزله عن قضايا الحقيقة الحقيقية.

لقد سبق لثيئته أن دعانا في "ما وراء الخير والشر" إلى التصدي لهذا "التقدم الذي يصير الناس متشابهين أكثر فأكثر، وعاديين وسذج وسوقيين"



"إبراز الأخر كعدو لنا هي لعبة جد سهلة للعب عوض الحوار. فعلا، تشتبك حرب الحضارات هذه، لأنه يتم إقناع الناس من هذا الطرف وذاك بأن كل الآخرين هم ضدنا بأن ليس هناك شخص يمكن التخاطب معه في الجانب الأخر. «تايلور

" يمكن أن ينطلق تواصل في مجتمع متحرر حقق الرشد لأعضائه ليصل إلى حوار خال من السيطرة" هبرماس

"علينا أن نتصور وحدة تضمن التنوع وتمييزه، وأن نتصور تنوعا ينخرط في وحدة. إن الوحدة المركبة لهي هذا بالضبط، ... إنها وحدة مركبة خلقة" إموران

"إن قطرة الماء تشارك في عظمة المحيط حتى وإن كانت لا تعي ذلك؛ لكن بمجرد أن ترغب في الانفصال تجف تماما" المهاتما غاندي-كل البشر إخوة

الإنساني وحدة متكثرة

الإستخلاص: في الختام نقول:

من الكوني الإيديولوجي إلى الكوني الإيتيقي

هو كوني القيم أو كوني الحياة الذي نفهمه على أنه كوني مبدع خلاق منفتح، تميزه قوى الفعل لا قوى الانفعال أو هو كوني إيتيقي؛ لا يزال الإنسان سؤاله بامتياز، ليس كوني الحياة هو أن يدافع كل منا على هويته دون نفي هوية الأخر أو نفي حقه في أن يعيش خصوصيته؟ بحيث تتحقق حكمة العيش معا، حكمة تنقذ الكوني من العولمي وتقتلع الهوية من الهاوية.

يجب أن ندخل في صراع من أجل عالمية المبادئ ضد عولمة المصالح أو مع أنسنة العولمة ضد عولمة الإنسان.

من المفيد أن نلاحظ في النهاية أن الأمم والشعوب تزداد بتاريخها وماضيها وتراثها حين يكون حاضرها مأزوم، فالإزمات الكبرى التي تطال "أنا" الإنسان الحاضر تدفع به آتيا إلى البحث عن "الأنا" الماضي عبر الفوص والبحث عن مسوغات تاريخية تعيد لذاته المتصدعة اعتبارها من جديد عبر اجترار الماضي

للتذكر

إن حوار الحضارات هو الآلية الأكثر قدرة على تجسيم تكريس الحق في الاختلاف دون الاختلاف في الحق، نشدانا لمنزلة الإنسان إنسانا بحق. لكن التشخيص النقدي للواقع يؤكد لنا أن الإنسان يجد عسرا كبيرا في الالتزام بقبول الاختلاف وفي الاعتراف به حقا للأخر، فهل احترام نظام العولمة هذه الاختلافات؟ وهل تمثل العولمة خطرا فعليا على هوية الثقافات؟

* " أن أعرف من أكون يعني أن أعرف الموقع الذي أحتله" تايلور
* "لم يعد الكوني قادرا للاستجابة لمطلب الاعتراف ولا لحاجة الهويات الثقافية المختلفة" تايلور



"...وحلّ سؤال من أنت؟ محلّ سؤال: إلى أي جانب أنت؟" هنتنجتون



" يمثل التعصب بالنسبة إلى التشاؤم ما تمثله العدوى بالنسبة إلى الحمى وما يمثله
الغيض بالنسبة إلى الغضب" فولتير



" إن الهوية صيرورة ذاتية للحدث ومرتبطة تاريخياً بها. لم يكن الإنسان المندمج في مجتمع
تقليدي يطرح مشاكل الهوية كما فعل نحن اليوم. رغم أنه عملياً كان يعيش فردانية"
جون كلود كوفمان: ابتكار الذات



" الإنسان يخلق نفسه، ولا يصل إلى خلق نفسه تماماً إلا بمقدار ما يتجرّد من القداسة ويجرّد
العالم منها. القدسي هو العقبة بامتياز أمام حريته" مرسيا إياد-Sacré et profane-ص187



" لا تكفُّ الهوية عن جمع الشظايا وتركيبها، فهي نسق مستقر يحفظ المعنى ويسيجّه، ونموذجها
هو الكلية" ج. ك. كوفمان ابتكار الذات، نظرية في الهوية



"هذه فروقات ولودة مبدعة في الحقيقة، ومن خلالها بالذات تم إحراز التقدم." نفي ستراوس



" لقد تلمّح الانسان بالأشكال اللغوية والصور الفنية والرموز الأسطورية أو الشعائر الدينية
حتى أصبح لا يرى شيئاً ولا يعرف شيئاً إلا بواسطة من هذه الوسائل المصطنعة"
كاسيرار-مقال في الإنسان-ص43



"أظن أن الفضيلة الأكثر أهمية هي التواضع، يعني القدرة على تقبل كون الآخرين ليسوا مثلنا،
بأن ليس لدينا نموذج عالمي، بأن هناك طرق أخرى لوجود كائنات بشرية بأن طريقتنا ليست
إلا طريقة ضمن طرق أخرى متعددة. [...] وغياب هذا التواضع هو الذي يمنعنا من رؤية ما
يوجد غالباً أمام أعيننا: اختلاف الآخرين. لذا أظن أن الفضيلة الرئيسية التي يتوجب غرسها
هي التواضع." تايلور



الناس وذلك بعزلهم" هوركهايمر وأدرنو-ديالكتيك العقل-ص98



ر.ديبراي: " في نظام البصري أو الفيديوقراطية صار بإمكان المرء تجاهل خطابات الحقيقة
والخلاص وإنكار الكليات والمثل، ولكن لم يعد بإمكانه إنكار قيمة الصورة... وما يرينا العالم هو
أيضاً ما يعمينا عن النظر إليه" ريجيس ديبراي-حياة الصورة وموتها-ص289



بودريار: " إن الإرهاب ليس حفيد تاريخ الفوضى والعدمية... إنه ابن العولمة"



روجيه غارودي: "إن العولمة تؤسس لديانة توحيدية كونية جديدة هي ديانة السوق"



إدغار موران: "لا نعلم إلى حدّ الآن ما إذا كانت العولمة تمثلّ الأمل الأخير أم هي سوء الطالع الأخير بالنسبة للإنسانية"



شارل تايلور: "...العلاج الوحيد هو إيجاد، في كل من هذه الحضارات، الأشخاص القادرين على التحاور، على الكلام. يجب ربط الاتصالات والتأييد المتبادل، بهدف إعادة متطرفينا إلى صوابهم، لأن من البديهي أن المتطرفين يوجدون في كلا الجانبين."



شارل تايلور: "إبراز الآخر كعدو لنا هي لعبة جد سهلة للعب عوض الحوار. فعلا، تشتبك حرب الحضارات هذه، لأنه يتم إقناع الناس من هذا الطرف وذاك بأن كل الآخرين هم ضدنا بأن ليس هناك شخص يمكن التخاطب معه في الجانب الآخر."

تودوروف: "إن الذات تحتاج إلى الآخرين، ليس لأن كل شخص على حدة لا يكتمل وجوده إلا بهم، ولكن لأن الفضيلة تتجلى من خلالهم."



هبرماس: "يمكن أن ينطلق تواصل في مجتمع متحررّ حقق الرشد لأعضائه ليصل إلى حوار خال من السيطرة"



إ. موران: "علينا أن نتصور وحدة تضمن التنوع وتمييزه، وأن نتصور تنوعا ينخرط في وحدة. إن الوحدة المركبة لهي هذا بالضبط، ... إنها وحدة مركبة خلاقة"

